وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02 - أبو القاسم سعد الله -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

مدينة القسطنطينية من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين العرب الفترة ما بين القرن الثالث إلى منتصف القرن التاسع الهجري (ق9 إلى منتصف ق 15 م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

تخصص التواصل الحضاري بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

إعداد الطالب:

بودانة وليد

إشراف الأستاذ:

الدكتور شريفي أحمد

السنة الجامعية: 1435-1436هـ/ 2014-2015م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 02 - أبو القاسم سعد الله -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

مدينة القسطنطينية من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين العرب الفترة ما بين القرن الثالث إلى منتصف القرن التاسع الهجري (ق9 إلى منتصف ق 15 م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

تخصص التواصل الحضاري بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د بوكنة عبد العزيز	رئيسا
أ.د شريفي أحمد	مقررا
د. عبد الشكور نبيلة	مناقشا
أ.د بشار قويدر	مناقشا

إعداد الطالب:

بودانة وليد

إشراف الأستاذ:

الدكتور شريفي أحمد

السنة الجامعية: 1435-1436هـ/ 2014-2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

سورة هود الآية: 88

شـكـر

أحمد الله عز وجل على توفيقه لي في إنجاز هذا البحث المتواضع فله الحمد والشكر كله

كما أتقدم بأسمى عبارات الشكر والعرفان لأستاذي المشرف الدكتور أحمد شريفي الذي لم تثنه المشاغل الإدارية عن متابعة عملي وتصويبه، فله مني خالص الدعاء بأن يجعل الله ذلك في ميزان حسناته...

الإهــداء

إلى من لا تسعني الكلمات لأعبر عن امتناني وشكري لهما... أمي وأبي.

أطال الله عمرهما، ورزقني برهما...

إلى كل أفراد أسرتي... أصدقائي... وزملاء الدراسة...

إلى كل من أحب...

إلى معلمي الأول... عبد العزيز قريش...

إلى من علمني حب التاريخ...أستاذي عبد القادر بن زموري...

إليكم جميعا... أهدي هذا البحث.

مقـــدمـــة

اهتم المسلمون في فترة ازدهارهم الحضاري اهتماما بالغا بالرحلات داخل الدولة الإسلامية وخارجها، وذلك لأسباب مختلفة وعوامل متعددة، وكان العديد من الرحالة المسلمين يدونون مشاهداتهم وملاحظاتهم ما جعل كتبهم تزخر بمعارف هامة عن المناطق التي زاروها وأحوال المجتمعات المقيمة بها وأسلوب معيشتها وما عُرفت به من عادات وتقاليد.

وخلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بدأت تتشكل معالم مدرسة عربية جغرافية، ليتزايد اهتمام المسلمين بهذا العلم –الجغرافيا – طيلة القرون اللاحقة حيث خلفوا مادة غزيرة متنوعة حق لنا الافتخار بكونها إرثا حضاريا مميزا.

ونظرا لكون القسطنطينية عاصمة لواحدة من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العصر الوسيط، وكذا لموقعها الجغرافي المميز، ولدورها السياسي والحضاري، فإنها كانت محط أنظار العالم أجمع. لذا فلا عجب إن أسهب الرحالة المسلمون الذين زاروها في وصفها والتطرق لمعالمها، ولا غرابة إن أعطاها الجغرافيون المسلمون اهتماما خاصا في كتاباتهم فلم يقتصر حديثهم عنها على ذكر جغرافيتها والطرق المؤدية لها فقط، ولكن تعدوا ذلك إلى التطرق للعديد من جوانب الحياة بها.

وعلى هذا الأساس اخترنا أن تكون دراستنا بعنوان "القسطنطينية من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين".

وقد دفعتني مجموعة من الأسباب لاختيار هذا الموضوع، يتمثل أهمها فيما يلي:

– الأهمية الكبيرة التي ظلت تكتسيها القسطنطينية منذ تأسيسها وإلى غاية اليوم.

– تقصي مدى صحة معلومات الرحالة والجغرافيين العرب في تطرقهم للمواضيع المتصلة بالطرف الآخر (الغير إسلامي).

– محاولة إبراز مساهمة المسلمين في كتابة تاريخ هذه المدينة العريقة.

– إبراز نموذج من نماذج التواصل الحضاري بين الشرق والغرب في فترة العصور الوسطى (الآخر في الكتابات العربية).

– الميول الشخصية لموضوع الجغرافيا والرحلات.

إشكالية الموضوع:

لم تقتصر أهمية مدينة القسطنطينية على كونها عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فحسب، وإنما كانت مقر الكنيسة الشرقية أيضا، إضافة إلى كونها مقصداً للتجار من كل مكان.

هذه المميزات جلب اهتمام المسلمين بهاته المدينة حيث نظموا عددا من الحملات لفتحها في وقت مبكر من تاريخ الدولة الإسلامية، غير أنه لم يكتب النجاح لهذه الحملات، ورغم ذلك ظل اهتمام المسلمين بالمدينة قائما فأسهبوا في ذكرها في مؤلفاتهم كلما دعت الحاجة إلى التطرق إليها، وهذا ما جعلني أحاول الإجابة على الإشكالية التالية:

كيف نظر الرحالة والجغرافيون المسلمون لمدينة القسطنطينية في مؤلفاتهم؟ وما هي الجوانب التي شدت انتباههم خلال تطرقهم لها؟ وما مدى صحة معلومات الرحالة والجغرافيين المسلمين خلال حديثهم عن المدينة؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار مؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين مصدرا هاما لتاريخ المدن؟.

خطة البحث

أما عن هيكلة الموضوع فقد وضعت خطة تتكون من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

وقد عنونت الفصل الأول ب "فن الرحلة وعلم الجغرافيا عند المسلمين"، حاولت أن أتناول فيه بشكل مختصر النقاط العامة التي تؤدي إلى فهم تطورهما –الرحلة والجغرافيا– في كنف الحضارة العربية، إذ لا يمكن الحديث عن وصف الرحالة والجغرافيين المسلمين لمدينة ما دون فهم المراحل التي مرّ بها فن الرحلة وعلم الجغرافيا عند المسلمين.

أما الفصل الثاني فخصصته للحديث عن وصف الرحالة والجغرافيين المسلمين لجغرافية القسطنطينية، وبعض معالم الحياة السياسية بالمدينة، إضافة إلى عدد من النظم الإدارية والاقتصادية للقسطنطينية.

وفي الفصل الثالث عملت على إبراز وصف الرحالة والجغرافيين المسلمين لأهم المعالم الحضارية لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية وتقييم نظرة المسلمين لها.

وقد خصصت لكل فصل مقدمة وخلاصة صغيرتين بيّنت في الأولى أبرز النقاط التي سيتطرق إليها الفصل، وأجملت في الثانية بعض الاستنتاجات.

أما في خاتمة البحث فقد وضحت أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة وآفاق البحث الجديدة التي تفتحها.

المنهج المتبع في الدراسة:

للإجابة عن اشكالية البحث اعتمدت على المنهجية الآتية:

1/ جمع المصادر ذات العلاقة المباشرة بالموضوع.

2/ فرز المادة وترتيبها ترتيبا كرنولوجيا، ابتداء بالمصدر الأقدم فالذي يليه قدما وهكذا...

3/ تصنيف المادة وتوزيعها حسب فصول البحث. والعمل في نفس الوقت على مقارنتها ببعضها.

4/ الرجوع إلى عدد من المصادر الثانوية، ومجموعة من الدراسات الحديثة للكشف عن مدى تطابق معلومات الرحالة والجغرافيين المسلمين مع الواقع التاريخي لمدينة القسطنطينية.

عرض لأهم المصادر:

تكتسي كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين أهمية خاصة في هذه الدراسة، غير أن أهميتها تتفاوت فيما بينها، ومن بين هذه المصادر أذكر:

كتاب "الأعلاق النفيسة" لأبي علي أحمد بن عمر بن رسته (ت حوالي 300هـ/ 900م)، لم يصلنا من الكتاب سوى المجلد السابع وتكمن أهميته في أنه تضمن أول وصف إسلامي قيم لمدينة القسطنطينية، حيث حفظ مؤلف هذا الكتاب رواية هارون بن يحي الذي اقتيد أسيرا إلى مدينة القسطنطينية فنقل مشاهداته عنها، وانفرد بوصف أهم سجونها، وخروج الإمبراطور البيزنطي إلى كنيسة آيا صوفيا، وقد اعتمدت في هذا البحث على طبعة دار إحياء التراث العربي حيث جاء الكلام عن القسطنطينية في حوالي ستة صفحات ونصف الصفحة (من ص113 إلى ص120).

وتميز ابن خرداذبه في كتابه "المسالك والممالك" بكم كبير من المعلومات عن القسطنطينية خاصة في الجوانب الجغرافية والإدارية والعمرانية للمدينة. وقد نقلت معظم المصادر الجغرافية التي أتت بعده معلوماته عن القسطنطينية منه.

ومن المصادر الهامة أيضا كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي

(ت560هـ/ 1165م) حيث ركز في وصفه للقسطنطينية على الجانبين الجغرافي والعمراني.

وفي القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد زار القسطنطينية الرحالة المغربي ابن بطوطة صاحب كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وأهم جانب اهتم به في وصفه للمدينة هو الجانب الديني حيث وصف كنيسة آيا صوفيا وأديرة المدينة ورهبانها، كما انفرد عن غيره من الرحالة والجغرافيين المسلمين بذكر قاضي القسطنطينية.

وبالنسبة للمراجع فإن أهمها على الإطلاق كان دراسة الأستاذة ليلى عبد الجواد إسماعيل المعنونة ب "القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين" والمنشورة بمجلة المؤرخ المصري، حيث يسرت لي هذه الدراسة الوصول لبعض المصادر التي لم أنتبه لها في بداية جمعي للمادة، كما سهلت لي فهم عدد من النقاط التي استعصى علي فهمها مباشرة من المصادر، وقد سجلت عددا من الملاحظات على هذه الدراسة أوردت بعضها ضمن صفحات البحث.

ويوجد كذلك كتاب المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشوفسكي والذي أعطاه عنوان "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، نقله إلى العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم، وقد أرخ فيه مؤلفه لمعظم الرحالة والجغرافيين المسلمين مقدما وصفا شيقا عن حياتهم ورحلاتهم وما خلفوه من مؤلفات.

إضافة إلى ذلك استفدت في هذا البحث من بعض الدراسات الأجنبية أهمها دراستا المؤرخ شارل ديل Charles Diehl في كتاب The Cambridge Medieval History حيث عنون الأولى ب The Government and Administration of the Byzantine Empire أما الثانية فأعطاها عنوان Byzantine Civilization وتمثلت استفادتي من

هاتين الدراستين في مقارنة ما جاء فيهما بما ذكره الرحالة والجغرافيون المسلمون عن القسطنطينية.

صعوبات البحث:

صادفت أثناء إنجازي لهذه الرسالة بعض الصعوبات التي تبقى طبيعية في طريق كل باحث مبتدئ، ولعل أهمها عدم توفر بعض الكتب المهمة للبحث مثل كتاب "بسط الأرض في الطول والعرض" للجغرافي ابن سعيد المغربي، حيث طبع هذا الكتاب مرة واحدة بمدينة تطوان المغربية وذلك سنة 1958م.

هذا إضافة إلى عدد من الدراسات الأجنبية التي لم أجدها بالمكتبات التي زرتها ولم أتمكن من الحصول عليها عبر شبكة الانترنت، ومن بين هذه الدراسات أذكر مقالا للمؤرخ ألكسندر فازيليف A. Vasiliev بعنوان "هارون بن يحي ووصفه للقسطنطينية Harun Ibn Yahya and His Description of Constantinople"

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساعدني على إنجاز هذا البحث المتواضع، خاصة أستاذي المشرف الدكتور أحمد شريفي وكذلك الأستاذ أحمد يسعد الذي سبقني للبحث في ميدان الرحلات،[1] وساهم معي بكل ما في وسعه لإنجاز هذه الرسالة، كما أتوجه بالشكر لأعضاء لجنة المناقشة المحترمين على ما سيقدمونه لي من ملاحظات ستسهم بكل تأكيد في تصويب الهفوات التي أكون قد وقعت فيها.

1- ناقش الباحث يسعد أحمد رسالة الماجستير بعنوان: **ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني (ت 440/ 1048م)**، رسالة ماجستير، تحت إشراف د أحمد شريفي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو القاسم سعد الله، 2010.

الفصل الأول

فـن الرحـلـة وعـلم الجغـرافية عند المسلميــن

لم يكن فن الرحلة وعلم الجغرافيا وليدي الحضارة الإسلامية، وإنما شكلت الفترة الإسلامية مرحلة من مراحل تطورهما، حيث أسهم المسلمون بشكل بارز في تقدمهما، وهذا ما جعلنا نتساءل عن أهم السمات المميزة لفن الرحلة وعلم الجغرافيا عند المسلمين؟ ومن هم أبرز الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين أسهموا بكتاباتهم في هذا المجال؟

وللإجابة عن هذا التساؤل فإننا سنحاول في هذا الفصل إلقاء الضوء على فن الرحلة وعلم الجغرافيا – في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية – باختصار كبير، فما غايتنا التعمق في دراستهما، بقدر ما هي رغبة في أخذ لمحة موجزة عنهما لفهم تطورهما في كنف الحضارة الإسلامية.

يبدأ الفصل بشرح معنى الرحلة، ثم التطرق لأهم الأسباب التي كانت تدفع المسلمين إلى الارتحال، لينتقل إلى ذكر مخاطر ومشاق الرحلة قديما، فيترجم بعدها لأهم الرحالة المسلمين في العصور الوسطى.

أما الشق الثاني من هذا الفصل –والمتعلق بعلم الجغرافيا– فيتطرق أولا إلى مفهوم كلمة "جغرافيا" عند جغرافيي الإسلام وأسباب اهتمامهم بها وتأثرهم بجغرافيي اليونان، ليستعرض بعدها المدرسة البلخية كنموذج للمدارس الجغرافية الإسلامية، ثم يتطرق لتطور الخرائط عند المسلمين، لينتهي بالترجمة لبعض الجغرافيين المسلمين.

أولا: فن الرحلة عند المسلمين:

1/ معنى الرحلة:

لغة مصدرها "رحل"، وهو فعل يدل على مضي في السفر.[1] والترحل والارتحال، تعني الانتقال، وهو الرحلة،[2] يقال: غدا رحلتنا؛ أي ارتحالنا.[3]

أما الرُّحلة (بضم الراء) فهي الجهة أو المكان الذي يقصده الراحل،[4] كأن نقول: القسطنطينية رُحلتنا؛ أي أنها المكان الذي سننتقل إليه.

وفي الاصطلاح لم أجد تعريفا محدداً للرحلة، وإنما يمكن القول بأنها الخروج من الوطن والسياحة في الأرض لمقاصد شتى.

2/ أسباب القيام بالرحلات:

عرف العرب قبل الإسلام فائدة الرحلات، فقاموا بتنقلات عديدة داخل الجزيرة العربية وخارجها، وكانت التجارة الباعث الأساسي لرحلاتهم، حيث عُرفت قبيلة قريش برحلتين موسميتين، جاء ذكرهما في القرآن الكريم حين قال الله تعالى ﴿لإيلاف قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)﴾.[5]

1- أبو الحسين أحمد بن فارس: **معجم مقاييس اللغة**، ج2، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د م، 1979، ص497.

2- ابن منظور: **لسان العرب**، ج18، تح عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص ص 1610-1611.

3- البستاني بطرس: **محيط المحيط**، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، ص328.

4- ابن منظور: المصدر السابق، ص1611؛ البستاني؛ المرجع السابق، ص328.

5- سورة قريش: الآية 1-2.

بظهور الدين الإسلامي واستقراره في شبه الجزيرة العربية بدأت الفتوحات تتجه إلى خارجها، فكانت هذه الفتوحات عبارة عن رحلات جماعية للجيوش الإسلامية.

ولما انتشر الإسلام واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، تعددت أسباب القيام بالرحلة والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

أ/ الحج:

يعتبر الحج من أهم بواعث الرحلات، فهو الركن الخامس في الإسلام، حيث تتجه أعداد كبيرة من المسلمين كل عام صوب الحجاز لتأدية هذه الفريضة، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم.[1]

كان النبهاء من الحجاج يدونون مشاهداتهم والطـرق التي يسلكونها، والأحداث التي يصادفونها، فعُرفت مصنفاتهم بكتب الرحلة.[2] وكانت النية الحجازية الدافع الأساسي لخروج العديد من الرحالة المعروفين من أوطانهم كابن جبير[3] وابن بطوطة[4] وغيرهما.

وفضلا عن تأدية الفريضة، كان الحاج يجني من رحلته فوائد أخرى كالالتقاء بأغلب

1- زكي محمد حسن: **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، كلمات للترجمة والنشر، مصر، 2013، ص10.

2- أحمد رمضان أحمد: **الرحلة والرحالة المسلمون**، دار البيان العربي، جدة، د ت، ص13.

3- كتب ابن جبير: " **كان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركة...**" أنظر ابن جبير محمد: **رحلة ابن جبير**، تح لجنة تحقيق التراث، دار الهلال، بيروت ، د ت، ص07. وعن شخصية ابن جبير، أنظر ص ص12- 13 فما بعدها من هذا البحث.

4- قال ابن بطوطة: " **كان خروجي من طنجة... معتمدا حج بيت [الله] الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام...**" أنظر ابن بطوطة أبو عبد الله محمد: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ج1، تح عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ص153. وعن شخصية ابن بطوطة، أنظر ص15 فما بعدها من هذا البحث.

فقهاء العالم الإسلامي والأخذ عنهم،[1] فكان طلب العلم من الأسباب المهمة للرحلات أيضا.

ب/ طلب العلم:

حث الإسلام على طلب العلم، وميز العلماء عن غيرهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾،[2] فغدا الارتحال ضرورة لابد منها لأخذ العلم من منابعه،[3] وفي هذا يذكر ابن خلدون أن الرحلة "**...لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال**".[4] وبمرور الوقت أضحت الرحلة في طلب العلم معياراً للحكم على مستوى العلماء والفقهاء.[5]

ومن أهم العلوم التي كان يُرتحل لأجلها علم الحديث،[6] فقد كان العلماء يتجشمون الصعاب ويقطعون مسافات طويلة طلبا لحديث واحد،[7] أو ربما لمجرد التحقق من كلمة

1- أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص13.

2- سورة الزمر: الآية 9.

3- محمد رشيد الفيل: أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، **مجلة رسائل جغرافية**، ع9، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، سبتمبر 1979، ص11.

4- ابن خلدون عبد الرحمان: **المقدمة**، تح مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2005، ص606.

5- النساج سيد حامد: **مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا**، مكتبة غريب، القاهرة، د ت، ص10.

6- عن الرحلات في طلب الحديث. أنظر: فاضل إسماعيل خليل: الرحلة في طلب الحديث، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، ع57، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، أفريل 2007، ص ص23- 51.

7- ذكر الخطيب البغدادي "**عن القاضي أبي بكر بن أحمد....عن كثير بن قيس قال: كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق. فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء! جئتك من المدينة؛ مدينة الرسول لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ. قال: ولا جئت لحاجة؟ قال: لا...**" الخطيب البغدادي: **الرحلة في طلب الحديث**، تح نور الدين عتر، سلسلة روائع تراثنا الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975، ص ص 77-78.

فيه.[1] وقد ساعد على مثل هذه الرحلات تفرق الصحابة بين الأقطار، وانتشارهم في المناطق التي فتحها المسلمون.

جـ/ التجارة:

ظلت التجارة على مر العصور أمرا يتطلب الرحلة والسفر الطويل، ومع ازدهار الدولة الإسلامية اتسعت آفاق التجارة،[2] وصار بإمكان التاجر أن يتنقل بين المدن الإسلامية، يبيع ويشتري دون أن يعيقه شيء.[3]

ووصلت تجارة المسلمين إلى أصقاع شتى من العالم عبر القوافل والسفن، ولعل من أشهر الرحلات التجارية رحلة سليمان التاجر.[4]

د/ تكليف السلاطين:

كانت بعض الرحلات تتم بإيعاز من الحكام لإنجاز مهمات رسمية كالوفود والسفارات،[5] ومن أشهر الرحلات التي تندرج في هذا الإطار، رحلة ابن فضلان إلى حوض الفولغا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.[6]

هـ/ حب الاستطلاع ومعرفة أحوال الناس:

هناك سبب لا يقل أهمية عما سبق، وهو الرغبة في التجوال ومعرفة أحوال الدنيا

1- قنديل فؤاد: **أدب الرحلة في التراث العربي**، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002، ص19.

2- حسين محمد فهيم: **أدب الرحلات**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1989، ص80.

3- نقولا زيادة: **الجغرافية والرحلات عند العرب**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1987، ص147.

4- عن سليمان التاجر ورحلاته. أنظر: كراتشوفسكي أغناطيوس: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج1، تر صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية للجامعة العربية، القاهرة، 1963، ص ص141-142.

5- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص20.

6- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص ص186-187.

وأوضاع البلدان، فمثلا نجد ابن بطوطة يتعجل الخروج من بلده قبل موعد انطلاق قوافل الحجاج، لا لشيء سوى الرغبة في الترحال والتشوق له.[1]

أما اليعقوبي[2] فإن الفضول كان يأخذه كلما التقى رجلا أثناء تنقلاته، فيسأله عن أحوال بلده،[3] وكذا قصة الفتية المغررين الذين أبحروا في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، رغم ما كان يرتبط به من خرافات وأساطير تجعل الناس يعزفون عن الخوض في غماره، لكن فضول هؤلاء الفتية دفعهم للمغامرة والسعي لاكتشاف ما فيه.[4]

ويضاف للأسباب الآنفة الذكر، عوامل أخرى شجعت على التنقل، كاتساع رقعة العالم الإسلامي ووحدته الدينية،[5] وكذا اتساع شبكة الطرقات والأمن السائد في معظمها.[6]

3/ بعض مخاطر الرحلات:

لم تخل الرحلات قديما من المخاطر والصعاب، فقد كان الرحالة يلاقون أثناء تنقلاتهم العديد من العوائق سواء منها الطبيعية أو المفتعلة. وسنذكر هنا نموذجين يتمثل الأول في قساوة الطبيعة، أما الثاني فيتمثل في خطر قطاع الطرق.

1- مؤنس حسين: **ابن بطوطة ورحلاته**، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص18.

2- عن اليعقوبي أنظر ص 24 من هذا البحث.

3- اليعقوبي أحمد بن يعقوب: **كتاب البلدان**، السلسلة الجغرافية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص5.

4- للمزيد أنظر: الشريف الادريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص ص548-549.

5- محمد رشيد الفيل: المرجع السابق، ص12؛ محمد محمود محمدين: **التراث الجغرافي الإسلامي**، ط3، دار العلوم، الرياض، 1999، ص135.

6- خليف مصطفى غرايبة: الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، **دورية كان التاريخية**، ع3، مارس2009، ص9.

أ/ قساوة الطبيعة:

كثيرا ما كانت العوامل الطبيعية تعيق تحركات المسافرين، بل وتتسبب في هلاكهم، خاصة في الصحراء أين يندر الماء فيستبد العطش بعابريها فيهلكون، ويذكر ابن بطوطة في رحلته أنه وجد رجلا ميتا بسبب العطش بعد أن انفصل عن قافلته بحثا عن الماء.[1] بل كاد هو نفسه يهلك عطشا في إحدى تنقلاته.[2] ويذكر ابن جبير أنه مر على بئر منسوبة لعبدين ماتا قربها عطشا.[3]

ولم تقتصر قسوة الظروف الطبيعية على المتنقلين براً فقط، إذ نجد ابن جبير يعاني الأهوال حين عبوره بحر فرعون[4] (البحر الأحمر).

وحسبنا هنا أن نكتفي بما ذكرنا من أمثلة عن الأخطار التي تسببها الطبيعة للمرتحلين، إذ المخاطر كثيرة والحديث عنها يطول.

ب/ خطر قطاع الطرق:

كثيرا ما كان الرحالة يتعرضون لخطر اللصوص في الطريق، فينهب هؤلاء أملاكهم ويتركونهم بلا متاع أو زاد. وقد تعرض ابن بطوطة أثناء تنقلاته للسطو عدة مرات، بل أُسر في إحداها وكاد يُقتل.[5]

ومن الطبيعي أن تؤثر عمليات السطو هذه على الحالة النفسية للرحالة الذي يقع ضحية لها، وهو ما ينعكس على وصف الرحالة للمنطقة التي تعرض فيها للنهب.

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص242.

2- المصدر نفسه: ج4، ص14.

3- ابن جبير: المصدر السابق، ص45.

4- المصدر نفسه، ص43.

5- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص11-12.

ثانيا: نماذج لأشهر الرحالة المسلمين:

1/ المسعودي:[1]

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي،[2] ويكنى بالمسعودي لانتسابه إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود.*[3]

وتذكر معظم الكتب التي ترجمت لحياته أنه ولد ببغداد،[4] غير أن عبارة ذكرها النديم في كتابه "الفهرست" أثارت خلافا بين المؤرخين، حيث نسبه إلى بلاد المغرب.[5]

1- كتب نقولا زيادة عن المسعودي " **ونحن إذا أردنا أن نصنفه على نحو ما يصنف أهل العلم والفكر، لحرنا في أمره فهو ليس رحالة ولا مؤرخا ولا جغرافيا ولا فلكيا ولا طبيبا ولا محدثا ولا فقيها، ولكن كل هذه مجموعة معا.**" نقولا زيادة: المرجع السابق، ص153.

ونظرا لرحلاته الكثيرة رأينا أن نصنفه في هذا البحث ضمن الرحالة، خاصة أنه أول رحالة مسلم زار مدينة القسطنطينية. أنظر ليلى عبد الجواد إسماعيل: القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين، **مجلة المؤرخ المصري**، ع3، جامعة القاهرة، مصر، جانفي 1989، ص ص153-154.

2- النديم أبو الفرج محمد: **الفهرست**، مج2، تح أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث، لندن، 2009، ص ص474-475؛ الصفدي صلاح الدين: **الوافي بالوفيات**، ج21، تح أحمد الأرناؤوط- تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ص5؛ الكتبي محمد بن شاكر: **فوات الوفيات**، مج3، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1974، ص12؛ الذهبي شمس الدين محمد: **العبر في خبر من غبر**، ج2، تح أبو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية، لبنان، 1985، ص71.

* هو أبو عبد الرحمان عبد الله بن مسعود بن غافل (ت 32هـ/ 652م). من السابقين الأولين للإسلام، شهد بدر وما بعدها من أحداث، حدَّث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالكثير. أنظر ابن حجر العسقلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج6، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات، القاهرة، 2008، ص733 فما بعدها بعدة صفحات.

3- النديم: المصدر السابق، ص475؛ ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج1، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص1705؛ الصفدي: المصدر السابق، ص5؛ الكتبي: المصدر السابق، ص12-13.

4- الحموي: المصدر السابق، ص17؛ الصفدي: المصدر السابق، ص5؛ الكتبي: المصدر السابق، ص13.

5- النديم: المصدر السابق، ص474.

وقد حاول الأستاذ نقولا زيادة التوفيق بين الرأيين، فذكر بأن أسرة المسعودي انتقلت من المغرب إلى مدينة بغداد، دون أن يحسم فيما إذا كان المسعودي قد ولد ببغداد أو وصلها طفلا،[1] لكن ليس ثمة دليل يؤكد هذا الرأي.

أما الأستاذ فؤاد قنديل فذكر أنه ولد في إقليم بابل بالعراق،[2] مستدلا بعبارة للمسعودي ذكر فيها أنه ولد بهذا الإقليم.[3]

وإذا كان هذا الكلام يفند أن يكون مولد المسعودي بالمغرب، فإنه يظل بحاجة إلى تفصيل أكثر، إذ لم يُشر المسعودي إلى أي مدينة بهذا الإقليم ولد.

ولا يُعرف على وجه الدقة متى ولد المسعودي، غير أن ذلك لم يمنع المؤرخين من وضع تخمينات لتواريخ رأوا أنه يكون قد ولد فيها، ونستعرض هنا بعض هذه الآراء حيث ذكر كراتشوفسكي أن ميلاده كان في بداية القرن العاشر الميلادي.[4] وهو نفس الأمر الذي ذهب إليه الأستاذ الخربوطلي حين ذكر أن مولده كان حوالي سنة 287هـ/ 900م،[5] لكن يبدوا أن ولادته كانت قبل هذه السنة بدليل أن أول رحلة له خارج العراق كانت حوالي سنة 301هـ/ 916م، ومن المستبعد أن يجنح المسعودي للسفر ويواجه الأخطار في هذا السن المبكر من حياته.[6]

أما الدكتور عبد الفتاح وهيبة فذكر أن ميلاده كان حوالي سنة 276هـ/ 889م،[7] موثقا

1- نقولا زيادة: المرجع السابق ص152.

2- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص213.

3- المسعودي أبو الحسن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج2، تح كمال مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص51.

4- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص 177.

5- الخربوطلي علي حسني: **المسعودي**، دار المعارف، مصر، 1968، ص22.

6- السويكت سليمان: **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، السعودية، 1986، ص42.

7- عبد الفتاح محمد وهيبة: **جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995، ص24.

كلامه من الفهرست، غير أننا لم نجد ذكراً لميلاد المسعودي في هذا الكتاب. ورغم ذلك يمكن أن نرجح ما ذهب إليه الدكتور عبد الفتاح، وحجتنا في ذلك أنه إذا ما اتخذنا سنة 276هـ/ 889م، كتاريخ مفترض لميلاد المسعودي، فإن سنه عند أول ارتحاله (301هـ/ 916م) سيكون 25 سنة، وهو سن مناسب للارتحال.

مع بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بدأ المسعودي سلسلة تنقلاته فقام بعدة رحلات برية وبحرية،[1] مكنته من جمع معلومات هامة عن المناطق التي زارها.[2]

صبَّ المسعودي معارفه المتنوعة في مصنفاته الكثيرة والتي ضاع أغلبها للأسف،[3] إذ لم يبق منها سوى ثلاثة كتب هي: أخبار الزمان، مروج الذهب والتنبيه والإشراف.

ويشير بعض الكُتاب إلى وجود نسخة لمخطوطة بمكتبة البودليان (Bodleian Library) بأكسفورد البريطانية، يعتقد أنها هي "الكتاب الأوسط" للمسعودي.[4]

ويذكر الدكتور أحمد رمضان أن قسما من هذا الكتاب موجود بمكتبة آيا صوفيا بتركيا.[5] وكذلك ذُكر للمسعودي مخطوط آخر بعنوان "عجائب الدنيا" وهو موجود بالمكتبة السليمانية بتركيا.[6]

توفي المسعودي بمصر سنة 346هـ/ 957م،[7] وذكر صاحب العبر أن وفاته كانت

1- عن رحلات المسعودي أنظر عبد الفتاح محمد وهيبة: المرجع السابق، ص53 فما بعدها بعدة صفحات؛ السويكت سليمان: المرجع السابق، ص53 فما بعدها بعدة صفحات.

2- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص213.

3- أنظر قائمة كتب المسعودي المفقودة عند الخربوطلي علي حسني: المرجع السابق، ص ص42-43.

4- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص212.

5- وذلك تحت رقم 4/2938. أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص103.

6- موجود تحت رقم 2240 أنظر السويكت سليمان: المرجع السابق، ص115.

7- الحموي: المصدر السابق: ص1705؛ الصفدي: المصدر السابق، ص5؛ الكتبي: المصدر السابق، ص13.

سنة 345هـ/ 956م.[1]

2/ ابن جبير:

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني،[2] ولد ببلنسية[3] سنة 539هـ/ 1144م،[4] وقيل بشاطبة[5] سنة 540هـ/ 1145م،[6] وذكر المقري أن مولده كان في العاشر من ربيع الأول سنة 540هـ/ 1145م، ببلنسية.[7]

عُرف بولعه بالأدب والشعر كما اهتم برواية الحديث، تلقى العلم من أبيه ومن بعض علماء الأندلس، كما أجاز له عدد من علماء المشرق.[8]

كتب ابن جبير عند الحاكم الموحدي لمدينة غرناطة أبي سعيد بن عبد المؤمن، فوقعت له واقعة كانت وراء خروجه للحج،[9] حيث غادر غرناطة يوم الخميس 8 شوال 578هـ/

1- الذهبي: المصدر السابق، ص71.

2- المقري أحمد بن محمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج2، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ص381؛ الذهبي شمس الدين محمد: **سير أعلام النبلاء**، ج22، تح شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص45.

3- مدينة بالأندلس تقع شرقي قرطبة، أنظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مج1، دار صادر، بيروت، 1977، ص ص490-491.

4- ابن الآبار محمد بن عبد الله: **التكملة لكتاب الصلة**، ج2، تح عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995، ص110؛ ابن الخطيب لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، مج2، تح عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974، ص239.

5- مدينة تقع شرقي الأندلس أنظر الحموي: معجم البلدان، مج3، ص ص309-310.

6- ابن الآبار: المصدر السابق، ص110؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ص239، الذهبي: سير...، ص46.

7- المقري: المصدر السابق، ص381.

8- ابن الآبار: المصدر السابق، ص109-110؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ص ص232-233.

9- ذكر المقري أن ابن جبير " **كتب في أول أمره عند السيد أبي سعيد عبد المؤمن صاحب غرناطة، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا وهو على شرابه، فمد إليه بكأس فأظهر الانقباض وقال: يا سيدي ما =**

3 فيفري 1183م،[1] ودامت رحلته عامين وثلاثة أشهر ونصفا،[2] وهي الرحلة التي دونها وسماها " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"،[3] ويعتبرها كراتشوفسكي ذروة ما بلغه فن الرحلة في الأدب العربي لما تمتاز به من أسلوب رفيع.[4]

وفي شهر ربيع الأول من سنة 585هـ/ أفريل 1189م، خرج ابن جبير مرة أخرى إلى المشرق فأدى فريضة الحج،[5] وعاد في شعبان 587هـ/ سبتمبر 1191م.[6]

ثم خرج مرة ثالثة سنة 601هـ/ 1217م، بعد وفاة زوجته،[7] حيث توجه إلى مكة المكرمة وأقام بها مدة، ثم انتقل إلى بيت المقدس ومنها إلى الاسكندرية أين وافته المنية هناك في شعبان 614هـ/ 1217م.[8]

3/ الهروي:

أبو الحسين علي بن أبي بكر بن علي،[9] لقب بالهروي نسبة إلى مدينة هـراة[10] التي

= **شربتها قط، فقال: والله لتشربن منها سبعا، فلما رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجره، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير**". أنظر المقري: المصدر السابق، ص385.

1- ابن جبير: المصدر السابق، ص7.

2- المصدر نفسه، ص332.

3- المصدر نفسه، ص1.

4- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص301.

5- ابن الخطيب: المصدر السابق، ص232.

6- نفسه.

7- نفسه.

8- ابن الآبار: المصدر السابق، ص110؛ المقري: المصدر السابق، ص489.

9- الصفدي: المصدر السابق، ج20، ص163؛ ابن خلكان شمس الدين: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ت، ص346.

10- من مدن إقليم خراسان. أنظر الحموي: معجم البلدان، مج5، ص ص396-397.

منها أصله، لم تبين المصادر التي ترجمت له متى ولد، لكنها ذكرت أن ذلك كان بمدينة الموصل.[1]

عُرف عنه كثرة تطوافه إلى درجة أن لُقب بالسائح، وكان يُخلد زيارته للمواضع التي يصلها بكتابة اسمه على الحيطان.[2] وألَّف عدة كتب أبرزها "الإشارات إلى معرفة الزيارات" و "الخطب الهروية"[3] وكتاب "التذكرة الهروية في الحيل الحربية" وغير ذلك من المؤلفات.

استقر الهروي في نهاية حياته بمدينة حلب السورية، حيث أُسست له مدرسة هناك ظل بها إلى أن توفي في شهر رمضان من سنة 611هـ/ 1214م.[4]

4/ البيروني:

محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي،[5] لُقب بالبيروني لقلة مقامه ببلده خوارزم والمقصود منها البرَّاني أي الخارجي، وبيرون كلمة فارسية يشير معناها إلى البر،[6] وقيل نسبة لمدينة بيرون وهي من نواحي خوارزم.[7]

1- المنذري زكي الدين: **التكملة لوفيات النقلة**، مج2، تح بشار عواد معروف، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988، ص315؛ الذهبي: سير...، ص57.

2- ابن خلكان: المصدر السابق، ص346.

3- المصدر نفسه، ص347.

4- نفسه؛ المنذري: المصدر السابق، ص316.

5- الحموي: معجم الأدباء، ج5، ص2330؛ حميدة عبد الرحمان: **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، ط2، دار الفكر، دمشق، 1995، ص340؛ كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص245.

6- الحموي: معجم الأدباء، ج5، ص2331.

7- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص340؛ أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص137.

ولد سنة 362هـ/ 973م، وأتيح له تلقي تعليم جيد دعمه بأسفاره الكثيرة،[1] فكان له إنتاج علمي وافر حيث قاربت مؤلفاته نحوا من المائة والثمانين كتابا،[2] لعل أهمها كتابه في وصف الهند والموسوم ب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" والذي وصف بأنه "**أثر فريد في الأدب العلمي القديم أو الوسيط سواء في الغرب أو الشرق**"،[3] فما كتبه البيروني عن الهند يشهد حقا بسعة اطلاعه ودقة ملاحظاته ومعرفته بخبايا البلاد.[4]

في سنة 440هـ/ 1048م كانت وفاة البيروني،[5] بعد أن بصم على وجوده كواحد من كبار العلماء في الحضارة الإسلامية، ليس في الجغرافيا وأدب الرحلة فحسب، وإنما في عديد العلوم الأخرى كالفلسفة والرياضيات والفلك.[6]

5/ ابن بطوطة:

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، ويكنى بأبي عبد الله ويشتهر بابن بطوطة.[7] ولد يوم الاثنين 17 رجب 703هـ/ 24 فيفري 1304م،[8] ومن دواعي الأسف أن معلوماتنا عن نشأته جد شحيحة، إذ لم يذكر أيٌ من مؤلفي كتب التراجم معلومات وافية عنه.

1- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص340.

2- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص298.

3- كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص245.

4- زكي محمد حسن: المرجع السابق، ص43.

5- نفسه؛ عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص341؛ كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص247.

6- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص ص341-342.

7- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص151؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، مج3، ص273؛ ابن حجر العسقلاني: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ج3، دار الجيل، بيروت، 1993، ص480.

8- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص153.

خرج من بلاده يوم الخميس 02 رجب 725هـ/ منتصف جوان 1325م،[1] وعمره آنذاك اثنان وعشرين سنة، ويبدوا أنه نال قسطا وافراً من العلم قبل بدء رحلته، حيث يذكر أنه تولى قضاء ركب الحجاج المنطلق من تونس.[2]

ورغم شساعة الأقطار التي زارها وكثرة تنقلاته وأسفاره،[3] إلا أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات أثناء رحلته، كما أنه لم يكن هو من كتب الرحلة، إذ أن السلطان أبي عنان الفاسي[4] والذي كان قد أُعجب بما كان يرويه ابن بطوطة من أخبار رحلته، أمر بتدوين الرحلة وعيَّن لابن بطوطة كاتبا يُدعى ابن جزي[5] كي يملي عليه مشاهداته.

وعلَّل البعض عدم تدوين ابن بطوطة لرحلته بنفسه بعدم إتقانه للعربية، أو على الأقل عدم امتلاكه لملَكة الكتابة الأدبية.[6] لكن هذا التعليل لا يخلو من شيء التحامل على ابن بطوطة الذي نجده ينظم الشعر في مدح عدد من السلاطين الذين زارهم.[7] ومن ناحية أخرى هناك من يذكر أن لابن بطوطة كتابا دوَّنه بنفسه يسمى "**الوسيط في أخبار من حل مدينة تمنطيط**".[8]

1- ابن الخطيب: المصدر السابق، مج3، ص273؛ العسقلاني: الدرر...، ص480.

2- ابن بطوطة : المصدر السابق، ص169.

3- يذكر كراتشوفسكي أن مقدار أسفار ابن بطوطة تجاوزت ال175 ألف ميل. كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص421.

4- هو السلطان فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، يكنى بأبي عنان (ت 759هـ/ 1358م) من سلاطين بني مرين حكام المغرب الأقصى. أنظر العسقلاني: الدرر...، ص219.

5- محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (721-757هـ/ 1321-1357م)، نشأ في غرناطة وانتقل إلى بلاط أبي عنان الفاسي حيث اشتغل بالكتابة عنده. أنظر ابن الخطيب: المصدر السابق، مج2، ص256 فما بعدها بعدة صفحات؛ العسقلاني: الدرر...، ج4، ص ص165-166.

6- حسني محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب**، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983، ص ص37-38.

7- من أمثلة ذلك مدحه لسلطان الهند. أنظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ج3، ص ص135-136.

8- ابن سودة عبد السلام: **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، دار الفكر، بيروت، 1997، ص42. وقد حاولت البحث عن معلومات إضافية عن هذا الكتاب أو مكان تواجد مخطوطته لكني لم أصل إلى نتيجة.

وقد تضمن الكتاب الذي دوَّنه ابن جزي بعض المعلومات المنقولة من كتب رحالة سابقين كابن جبير، حيث يُرجح بعض المؤرخين أن ابن بطوطة لم يُملها، وإنما نقلها ابن جزي من كتب هؤلاء الرحالة.[1]

توفي ابن بطوطة سنة 779هـ/ 1377م، وهو متولٍ منصب القضاء ببعض البلاد بالمغرب.[2]

1- حميدة عبد الرحمان: المرجع السابق، ص560.

2- العسقلاني: الدرر...، ج3، ص481.

ثالثا: علم الجغرافيا عند المسلمين وتطوره:

1/ الجغرافيا عند المسلمين وأسباب اهتمامهم بها:

الظاهر أن كلمة "جغرافيا" لم تكن تعني لدى الجغرافيين المسلمين الأوائل شيئا أكثر من الدلالة على كتاب الجغرافي اليوناني بطليموس[1] المعروف في هذا المجال، وفُسرت الكلمة هنا على أنها تعني "قطع الأرض".[2]

ولعل إخوان الصفا[3] هم أول من استعمل لفظ "جغرافيا" للدلالة على علم معين، لكنها فُسرت أيضا على أنها تعني "صورة الأرض"،[4] ولم يستعمل الجغرافيون المسلمون الكلمة كعنوان لكتبهم إلا نادراً، وابتداءً من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فقط، ككتاب "الجغرافية" للزهري الأندلسي.[5]

وكان لاهتمام المسلمين بعلم الجغرافيا أسباب متعددة، ففتوحهم واتساع رقعة دولتهم أبرزت الحاجة إلى معرفة أحوال الأمصار وأهويتها ومساكنها، لتيسير إدارتها وحكمها

1- جغرافي يوناني (ت حوالي 165ق.م) عُرف أيضا باسم كلوديس بطلوميس، يُعد من أشهر جغرافيي العصور القديمة. أنظر **الموسوعة العربية العالمية**، ج4، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة، السعودية، 1999، ص ص466-467.

2- الفندي جمال: **الجغرافيا عند المسلمين**، كتب دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص ص11-12؛ محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص17.

3- جماعة سرية من المفكرين عاشت خلال القرن 4هـ/ 10م، بمدينة البصرة وكان لها فرع في عاصمة العباسيين بغداد، وضعت هذه الجماعة رسائل عدة لعلوم متعددة ...وقد ناقش بعض العلماء الآراء المنحرفة لإخوان الصفا. أنظر الموسوعة العربية العالمية، ج1، ص361.

4- الفندي جمال: المرجع السابق، ص12، حميدة عبد الرحمان: المرجع السابق، ص37.

5- ورد عنوان الكتاب في مخطوطاته المتوفرة بالعين المهملة عوض الغين فجاءت كتابته كالآتي: "كتاب الجعرافية".

عن الجغرافي الزهري وكتابه أنظر كراتشوفسي: المرجع السابق، ص279.

ومعرفة خراجها.[1] فنجد الخليفة عمر بن الخطاب[2] يكتب لأحد الحكماء طالبا منه وصف الأمصار والمدن التي فتحها الله على المسلمين.[3]

ورافق اتساع الدولة ازدهار النشاط التجاري، ما تطلب اكتساب المعلومات عن الطرق المؤدية للمدن الرئيسية، وما تتميز به هذه المدن من سلع.[4] وكذلك فرضت الحاجة الدينية ضرورة التعرف على المسالك المؤدية للمراكز الدينية المقدسة.[5]

وساهم اتصال الفكر العربي بمكتسبات الهنود والإغريق وغيرهم من الأمم عن طريق الترجمة في زيادة اهتمام المسلمين بالجغرافيا.[6]

2/ تأثر الجغرافيين العرب بالمدرسة اليونانية:

إن المتتبع لتاريخ التأليف الجغرافي العربي في أدواره الأولى، سيجد أن الجغرافيين الأوائل كانوا متأثرين إلى حد كبير بمعارف اليونان الجغرافية، حتى أن بعض الكُتاب دَرَجَ على نسب الجغرافيين الأوائل إلى مدرسة أُطلق عليها اسم "المدرسة اليونانية العربية".[7]

ولعل أهم جغرافيي اليونان ممن لاقت كتاباتهم رواجا لدى العرب هو بطليموس، حيث

1- خصباك شاكر: **الجغرافيا عند العرب**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986، ص7؛ محمد رشيد الفيل: المرجع السابق، ص48.

2- أبو حفص عمر بن الخطاب القرشي، ثاني الخلفاء الراشدين (13-23هـ/634-644م) لقب بالفاروق لشدة عدله وإنصافه. أنظر العسقلاني: الإصابة...، ص312 فما بعدها بعدة صفحات.

3- المسعودي: المصدر السابق، ص48.

4- خصباك شاكر: المرجع السابق، ص8.

5- نفسه.

6- المرجع نفسه: ص7؛ خليف مصطفى غرايبة: المرجع السابق، ص9.

7- نقولا زيادة: المرجع السابق، ص13.

تُرجم كتاباه "المجسطي"[1] و "المدخل إلى علم الجغرافية".[2]

ويتجسد التأثير اليوناني في الجغرافيا العربية بشكل خاص في أخذ الأطوال والعروض عنهم، وكذا تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم على نحو ما قسمه بطليموس.[3]

وأدخل الجغرافيون العرب على مؤلفات اليونان إضافاتهم وتعديلاتهم،[4] وشيئا فشيئا بدأت تتكون مدارس جغرافية عربية خالصة.

3/ المدرسة البلخية في الجغرافيا:

مع تطور الكتابة الجغرافية العربية برز خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، اتجاه جديد في التصنيف الجغرافي أطلق عليه كراتشوفسكي اسم " المدرسة الكلاسيكية لجغرافيي القرن العاشر "[5] ودرجت المراجع العربية على إطلاق تسمية "المدرسة البلخية" على هذا الاتجاه من التصنيف، نسبة إلى الجغرافي أبي زيد البلخي (235-322هـ/ 849-934م).[6]

ومن خصائص هذه المدرسة أن كتابات جغرافييها اقتصرت على العالم الإسلامي، ونادراً

1- كتاب المجسطي: هو كتاب جُمعت فيه نظريات بطليموس وملاحظاته في 13 جزءاً، تحت عنوان "التراكيب الرياضية" ونظرا لشدة الاعجاب به، أُطلق عليه اسم المجسطي وهو اصطلاح مزيج من اللغتين اليونانية والعربية يعني المجيد. أنظر الموسوعة العربية العالمية: ج4، ص ص466-467.

2- غلاب محمد السيد: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول**، مج3، السعودية، 1984، ص133.

3- نقولا زيادة: المرجع السابق، ص18.

4- مثلا تحولت عبارة جرمانيا القديمة إلى بلاد الصقالبة (السلاف). أنظر مينورسكي فلاديمير: الجغرافيون والرحالة المسلمون، تر عبد الرحمان حميدة، **مجلة رسائل جغرافية**، ع73، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، جانفي 1985، ص6.

5- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص197.

6- عن البلخي أنظر المرجع نفسه، ص198.

ما تناولت البلاد الغير إسلامية،[1] كما أن منهجها في تقسيم الأقاليم كان ذا صبغة سياسية إدارية إذ قسم جغرافيو هذه المدرسة ولايات العالم الإسلامي إلى أقاليم باعتبار كل ولاية تمثل إقليما منفصلا،[2] فتناولت كتاباتهم العالم الإسلامي في عشرين إقليما.[3]

4/ الخرائط عند المسلمين:

ضمَّت المصنفات الجغرافية الإسلامية مئات الخرائط والأشكال التوضيحية، غير أن كثيرا من هذه الخرائط والأشكال تعرض للضياع ولم يصلنا منها سوى عدد محدود،[4] ورغم ذلك فإن المراجع المعاصرة تقسم المراحل البارزة لتطور الخرائط الإسلامية إلى ثلاث.[5] وسنحاول هنا استعراض المراحل الثلاث مع ذكر نموذج لكل مرحلة.

يقابل المرحلة الأولى زمنيا القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ويمكن اعتبار الخريطة المأمونية[6] نموذجا لها، حيث اجتمع على صناعتها سبعون عالما من بينهم الخوارزمي،[7]

1- الفندي جمال: المرجع السابق، ص113.

2- شفيق عبد الرحمان علي: مدارس الجغرافيا عند المسلمين، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول**، مج3، السعودية، 1984، ص285.

3- من بينها جزيرة العرب، بلاد المغرب بما فيها الأندلس، صقلية، مصر، الشام...أنظر المرجع نفسه، ص260.

4- عن أهم الأسباب التي أدت إلى ضياع عدد كبير من الخرائط الإسلامية أنظر فلاح شاكر أسود: دور العرب المسلمين في رسم الخرائط، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول**، مج3، السعودية، 1984، ص184 فما بعدها.

5- عبد العال عبد المنعم الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية، **بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول**، مج3، السعودية، 1984، ص275؛ شفيق عبد الرحمان: المرجع السابق، ص261.

6- نسبة إلى الخليفة العباسي المأمون (198-218هـ/ 813-833م) أنظر للخريطة عند محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص207.

7- عبد العال عبد المنعم الشامي: المرجع السابق، ص280.

واحتوت الخريطة على مئة وثمانين خطا من خطوط الطول.[1]

ورغم أن هذه الخريطة اتبعت التقسيم اليوناني للعالم إلى سبعة أقاليم، إلا أنها فاقت الخرائط اليونانية من حيث صحة المعلومات الواردة فيها.[2] وهو ما يبرز عدم اكتفاء الجغرافيين العرب بالنقل عن اليونانيين، وإنما تصحيح ما أخطأوا فيه، كما تم استعمال الألوان في هذه الخريطة لتوضيح ما ورد فيها من معلومات.[3]

وإذا كانت هذه المرحلة تمثل فترة ازدهار لخرائط المسلمين، فإن المرحلة التي تلتها (بداية من القرن 4هـ/ 10م)، كانت فترة ركود عرفت ظهور خرائط بعيدة عن الدقة،[4] حيث خلت من القواعد الرياضية خاصة ما ارتبط منها بشبكة الطول والعرض، ولعل السبب في ذلك هو تأثر جغرافيي هذه المرحلة بالموروث الفارسي،[5] حيث وضعوا لكل إقليم بالدولة الإسلامية –على شاكلة ما كان معروفا في الدولة الساسانية (208–651م)– خريطة خاصة به، وهو ما اصطلح على تسميته ب "أطلس الإسلام"، فمثلا نجد الإصطخري[6] يضع إحدى وعشرين خريطة، واحدة منها تمثل خريطة العالم المستديرة والباقي لأقاليم العالم الإسلامي.[7]

وبظهور الجغرافي المعروف الشريف الإدريسي[8] انتقلت الخرائط الإسلامية إلى مرحلة

1– شفيق عبد الرحمان: المرجع السابق، ص261.

2– فلاح شاكر أسود: المرجع السابق، ص203.

3– نفسه.

4– شفيق عبد الرحمان: المرجع السابق ص ص261–262.

5– المرجع نفسه، ص263.

6– عن الإصطخري أنظر ص ص24–25 من هذا البحث.

7– فلاح شاكر أسود: المرجع السابق، ص ص207–208.

8– عن الإدريسي أنظر ص ص 26–27 من هذا البحث.

جديدة اعتبرت أعلى درجات التقدم في هذا المجال.[1]

رسم الإدريسي خريطتين، فُقدت إحداهما وهي المرسومـة على كرة من فضة،[2] أما الثانية فهي مستطيلة الشكل ومصنوعة من الفضة أيضا. وهي من أكبر الخرائط المعروفة في تلك الفترة (10/14 قدم، أي حوالي 3.04/4.26 متر)،[3] وبدت في هذه الخريطة دقة الإدريسي في الوصف وفي تحديد درجات الطول والعرض.[4]

وقد قسَّـم العالـم إلى سبعين قسما، إذ قام بتقسيم خريطته إلى سبع أقاليم حسب دوائـر العرض، ثم قسَّم كل إقليم إلى عشرة أقسام متساوية ابتداءً من الطرف الغربي للخريطة إلى شرقها.[5] والإدريسي بخرائطه هذه يكون قد وضع نواة علم الجغرافيا والخرائط الحديثة.[6]

1- عيسى علي إبراهيم: **الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000، ص86.

2- المرجع نفسه، ص87؛ محمد عبد الغني حسن: **الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام**، سلسلة أعلام العرب والإسلام، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص85.

3- عيسى علي إبراهيم: المرجع السابق، ص87.

4- محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص87.

5- عيسى علي إبراهيم: المرجع السابق، ص87.

6- عبد العال عبد المنعم الشامي: المرجع السابق، ص282.

رابعا: تراجم لأهم الجغرافيين المسلمين:

1/ اليعقوبي:

أحمد بن يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي، لا يُعرف تاريخ مولده ولا الكثير عن نشأته، سوى أن أغلب رجال أسرته ارتبطوا بوظائف حكومية عند العباسيين.[1]

قام برحلات كثيرة شرقا وغربا، كما كانت له عدة تصانيف منها كتابه في التاريخ، وكذا كتاب البلدان، وكتاب آخر في أخبار الأمم...[2]

وقد حرص في كتابه "البلدان" على التأكد مما يسمعه عن الأقطار قبل أن يكتب عنها.[3] واشتهر بميوله العلوية وهو ما يظهر جليا في كتابه التاريخي.[4]

أُختلف في تاريخ وفاة اليعقوبي، غير أن معظم الكتب تذكر أنها كانت سنة 284هـ/ 897م،[5] أما كراتشوفسكي فذكر أنه توفي في عام 292هـ/ 905م.[6]

2/ الإصطخري:

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري،[7] نشأ بمدينة إصطخر الفارسية وانتقل

1- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص117.

2- الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص557.

3- زكي رمضان حسن: المرجع السابق، ص29.

4- أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص72 فما بعدها.

5- الحموي: معجم الأدباء، ج2، ص557؛ عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص173؛ قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص116.

6- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص159.

7- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص199.

إلى مدينة بغداد لطلب العلم هناك.[1]

لا يُعرف تاريخ مولده على وجه الدقة، لكن يُرجح أنه ولد في أوائل الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فقد بدأ الإصطخري رحلاته في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ومن المرجح أن يكون سنه عند بدء رحلاته ما بين العشرين والخامسة والعشرين.[2]

زار الإصطخري معظم المناطق الشرقية للعالم الإسلامي، وكغيره من جغرافيي المدرسة الكلاسيكية تركزت كتاباته على وصف العالم الإسلامي فقط.[3]

ولا نعرف تاريخ وفاته بالضبط، لكن الأكيد أنها كانت بعد سنة 340هـ/ 951م، وهي السنة التي التقى فيها بالجغرافي ابن حوقل.*[4]

3/ البكري:

هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو،[5] ولد بمدينة شاليطش (Saltes) غربي الأندلس، تمكنت أسرته حوالي سنة 405هـ/ 1014م من تأسيس إمارة

1- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص178.

2- نفسه.

3- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص199.

* أبو القاسم محمد بن حوقل (ت367هـ/ 977م) جغرافي عربي، صاحب كتاب صورة الأرض. أنظر المرجع نفسه، ص200 فما بعدها.

4- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص199.

5- ابن الأبار محمد بن عبد الله: **الحلة السيراء**، ج2، تح حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص180؛ عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص356؛ مؤنس حسين: **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، ط2، مكتبة مدبولي، مصر، 1986، ص109.

صغيرة بعد سقوط دولة أمويي الأندلس، لكنها لم تصمد طويلا فاضطر أبوه إلى الانتقال إلى مدينة قرطبة،[1] وفيها تابع البكري تعلمه حتى أنه انتسب إليها فلُقب بالقرطبي.[2]

انتقل البكري فيما بعد إلى ألميرية[3] وصار وزيرا لحاكمها، وقام بعدد من المهام الدبلوماسية داخل الأندلس، ثم عاد إلى قرطبة وظل يمارس بها نشاطه الأدبي إلى أن توفي سنة 487هـ/ 1094م.[4]

ورغم أنه يعد جغرافيا مقيما، إذ لم يغادر الأندلس في حياته إلا أنه يوصف بكونه أكبر جغرافي أنجبته الأندلس،[5] حيث ألَّف كتابين جغرافيين على قدر كبير من الأهمية هما "معجم ما استعجم" وكتاب "المسالك والممالك"،[6] لكن لم يصلنا من الكتاب الأخير سوى ما تعلق بشمال إفريقيا ومصر والعراق ونواحي بحر قزوين وبعض أجزاء إسبانيا.[7]

4/ الإدريسي:

اسمه محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحي،[8] لقب بالشريف لانتمائه لآل

1- تقع جنوب الأندلس وهي من الحواضر الإسلامية الكبرى، وصلت لقمة ازدهارها حين كانت عاصمة للدولة الأموية بالأندلس. أنظر الحموي: معجم البلدان، مج4، ص ص324-325.

2- ابن الأبار: الحلة السيراء، ص182-183؛عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص356؛ أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص145-146؛ كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص275.

3- تقع جنوب الأندلس، بناها الخليفة الناصر (300-350هـ/ 912-961م)عرفت بازدهار تجارتها. أنظر الحميري محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980، ص ص537-538.

4- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص356؛ كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص275.

5- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص357.

6- نفسه.

7- نفسه؛ كراتشوفسكي: المرجع السابق، ص275.

8- الصفدي: المصدر السابق، ج1، ص138.

البيت،[1] ولد بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى سنة 493هـ/ 1100م،[2] وانتقل في سن مبكرة إلى مدينة قرطبة لطلب العلم، ثم كانت له رحلة زار فيها بعض مناطق أوروبا ومناطق أخرى كبلاد المغرب، مصر وآسيا الصغرى، لينتهي به الأمر في صقلية التي دخلها سنة 533هـ/ 1138م،[3] حيث استقر بالبلاط النورماني.

ألَّف الإدريسي كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وكتاب "روض الأنس في نزهة النفس" وهو في الجغرافيا أيضا وعرف فيما بعد باسم "المسالك والممالك".[4]

وبعد مستقر طويل في صقلية عاد الإدريسي إلى المغرب الأقصى حيث توفي سنة 560هـ/ 1165م.[5]

5/ الحموي:

هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله،[6] شهاب الدين،[7] وسماه ابن العماد خطأ بأبي الدر.[8] ولد سنة 574هـ/ 1178م،[9] وهو رومي الجنس أُسر صغيرا فاشتراه تاجر بغدادي أصله

1- الصفدي: المصدر السابق، ج1، ص138؛ كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص280؛ قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص338.

2- كراتشوفسكي أغناطيوس: المرجع السابق، ص280؛ محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص9.

3- قنديل فؤاد: المرجع السابق، ص338؛ عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص388-389؛ مؤنس حسين: المرجع السابق، ص17.

4- عبد الرحمان حميدة: المرجع السابق، ص389.

5- محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص12.

6- ابن خلكان: المصدر السابق، مج6، ص127.

7- الذهبي: سير...، ص312.

8- ابن العماد شهاب الدين: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مج7، تح محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، 1991، ص212.

9- المصدر نفسه، ص214.

من مدينة حماه السورية يُعرف بعسكر بن أبي نصر الحموي،[1] لذا نجد ياقوتا يلقب بالحموي نسبة لأصل سيده.

علَّمه سيده للانتفاع به في أمور تجارته، فكان ياقوت كثير الأسفار، ثم أعتقه سنة 596هـ/ 1199م، فاشتغل بنسخ الكتب.[2]

وكانت له عدة تنقلات عانى فيها من الشدائد[3] إلى أن استقر به المقام في حلب التي توفي بها يوم الأحد 20 رمضان 626هـ/ 12 أوت 1229م.[4]

ومن تآليفه كتاب "معجم البلدان"، "معجم الشعراء" وكذا "معجم الأدباء"[5] وكتاب "المشترك وضعا المفترق صقعا"...[6]

1- ابن خلكان: المصدر السابق، ص139.

2- نفسه؛ الذهبي: سير...، ص312؛ ابن العماد: المصدر السابق، ص213.

3- صادف الحموي في رحلته إلى خوارزم سنة 616هـ/ 1219م، هجوم التتار فعاد إلى الموصل فاراً بجلده ومن هنا بدأت معاناته إلى أن اتصل بجمال الدين القفطي وزير صاحب حلب. أنظر ابن خلكان: المصدر السابق، ص128 فما بعدها بعدة صفحات.

4- المصدر نفسه: ص139؛ ابن العماد: المصدر السابق، ص214.

5- عنوانه الأصلي "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب".

6- الذهبي: سير...، ص312.

من خلال ما تقدم يتبين لنا ما يلي:

– لم تكن الرحلة قديما أمرا هينا، فرغم تعدد أسبابها وحاجة الناس الشديدة لها، إلا أن الرحالة كانوا يعانون مصاعب جمة وأخطار شتى.

– تطور مفهوم كلمة "جغرافيا" عند المسلمين مع الزمن، إذ لم تكن في البداية تؤدي –بالنسبة لهم– مفهوم علم قائم بذاته.

– عرف كل من فن الرحلة وعلم الجغرافيا تطوراً كبيرا وملحوظا في كنف الحضارة العربية الإسلامية، ففي مجال الرحلة قدم المسلمون للعالم رحالة من طراز نادر لُقب بأمير الرحالة المسلمين ونقصد هنا ابن بطوطة.

أما بالنسبة للجغرافيا فإن المسلمين صححوا كثيراً من المفاهيم، وصوبوا عدة أخطاء وقع فيها سابقوهم.

– يعتبر الشريف الإدريسي قمة ما وصل إليه الفكر الجغرافي العربي في العصور الوسطى.

الفصل الثاني

جغرافية القسطنطينية وجوانب من نظم الدولة البيزنطية بها

تكلم جغرافيو ورحالة الإسلام عن جغرافية القسطنطينية وما تعلق بالحياة السياسية بها وعدد من نظمها الإدارية والاقتصادية، فأسهبوا في ذكر بعض النقاط وأوجزوا في أخرى.

هذا ما جعلنا نبادر إلى طرح التساؤلات الآتية:

ماهي الصورة التي نقلها الجغرافيون والرحالة المسلمون عن جغرافية القسطنطينية؟ وما أهم النقاط التي شدت انتباههم خلال حديثهم عن الحياة السياسية والنظم الإدارية والاقتصادية بالمدينة؟ وما مدى دقتهم في وصف هذه الجوانب؟.

يستعرض الفصل في البداية جغرافية القسطنطينية من خلال التطرق إلى موقعها وقياساتها، ووصف مضائقها المائية التي تزيد في أهميتها، ثم ذكر بعض الطرق المؤدية لها.

وينتقل بعدها إلى الحديث عن الحياة السياسية في المدينة بوصفها عاصمة للإمبراطورية البيزنطية، فيتطرق إلى ما ذكره الرحالة والجغرافيون المسلمون عن الإمبراطور قسطنطين وتأسيس القسطنطينية وما عرفت به الأخيرة من أسماء، ثم الحديث عن منصب الإمبراطور ونظام الحكم، وكذا سجون القسطنطينية وبعض الحملات العسكرية الإسلامية على المدينة، لينتهي الحديث عن الجانب السياسي بذكر بعض الأباطرة البيزنطيين.

كما يستعرض الفصل عدداً من التنظيمات الإدارية والاقتصادية بالعاصمة البيزنطية فيتناول كبار الموظفين وألقابهم، ويصف كبير القضاة بها، وتنظيمات العساكر الموجودة فيها، ويتطرق كذلك إلى أسواقها ونظام الضرائب المطبق بالمدينة.

أولا: جغرافية القسطنطينية:

1/ الموقع الجغرافي للمدينة:

تمتاز مدينة القسطنطينية بموقع جغرافي واستراتيجي فريد، إذ يحيط بها الماء من كل جهاتها عدا جهتها الغربية المتصلة بالبر.*[1] وإن لم تغب هذه المعلومة عن بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين، فإن آخرين منهم أخطأوا في تقدير الجهات التي تتصل القسطنطينية عبرها بالبحر فذكروا أنها تطل على الماء من جهتي الشرق والشمال،[2] وتتصل بالبر من جهتي الغرب والجنوب،[3] لكن عند ملاحظة خريطة المدينة[4] نجد أنها تتصل في جهتها الجنوبية بالماء –بحر مرمرة– حيث يمتد سور قسطنطين من الشمال إلى أن يصل البحر جنوبا، كما أنه يوجد ميناءان صغيران جنوب المدينة.

وذكر القلقشندي أن المدينة تتصل بالبر من جهتها الشمالية فقط، أما باقي الجهات ففي

---

* يُشبه المقدسي مدينتي المهدية والقسطنطينية ببعضهما من ناحية الشكل، واتصالهما بالبحر من ثلاث جهات حين يقول: " **والمهدية على البحر...ومن أحب أن ينظر إلى القسطنطينية فلينظر إليها ولا يتعنّى إلى بلاد الروم، فإنها على عملها في جزيرة يُدخل إليها من طريق واحد...** " المقدسي محمد بن أحمد: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تح شاكر العيبي، دار السويدي، 2003، ص213.

1– ابن رسته أحمد أبو علي: **الأعلاق النفيسة**، مج7، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت، ص114؛ المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص95؛ الدمشقي شمس الدين: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1998، ص192.

2– الحميري: المصدر السابق، ص221.

3– ابن خرداذبه أبو القاسم عبيد الله: **المسالك والممالك**، تح محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص93؛ المهلبي الحسن بن أحمد: **المسالك والممالك**، تح تيسير خلف، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق، 2006، ص61؛ الحموي: معجم البلدان، مج4، ص347؛ صفي الدين القطيعي البغدادي: **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، مج3، تح علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، 1992، ص1092.

4– أنظر الملحق رقم 1 ص97.

البحر.[1] ويبدوا أنه حصل له خلط بين مدينتي القسطنطينية وروما، فالوصف الذي ذكره ينطبق على مدينة روما لا على القسطنطينية.[2]

ومن الجغرافيين المسلمين –وحتى بعض المؤرخين المعاصرين– من يشبه المدينة في شكلها بالمثلث يتصل جانبان منها بالبحر أما الثالث ففي البر.[3] وبملاحظة شكل المدينة على الخريطة[4] نجد أنه يؤدي دور مثلث غير متساوي الأضلاع بقمة مفلطحة.

وتنبه المسعودي لتأثير المياه المحيطة بالقسطنطينية على جوها فذكر أن الرطوبة مرتفعة بها، وأن الرياح بها كثيرة الهبوب،[5] إذ لا تكاد تتوقف عنها الرياح الشمالية طوال فترتي الشتاء والربيع.[6]

2/ طول المدينة وأقسامها:

تباينت آراء الجغرافيين المسلمين أثناء تحديدهم لقياسات مدينة القسطنطينية، فذكر ابن رسته أنها مدينة عظيمة ثمانية عشر ميلا[7] في مثلها،[8] أما الإدريسي فقال بأن

1– القلقشندي أبو العباس أحمد: **صبح الأعشى**، ج5، دار الكتب الخديوية، مصر، 1915، ص377.

2– عن روما أنظر. ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص101 فما بعدها؛ ابن الفقيه الهمذاني: **مختصر كتاب البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص ص139–140.

3– إسحاق بن الحسين: **آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان**، تح فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، 1988، ص116؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص801؛ جيبون إدوارد: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ج1، تر محمد علي أبو درة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص346.

4– لاحظ شكل المدينة في الملحق رقم 1 ص97.

5– المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص241.

6– رنسيمان ستيفن: **الحضارة البيزنطية**، تر توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص4.

7– قدّر الميل قديما بحوالي 2 كلم أنظر فالتر هنتس: **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، تر كايل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن، 1970، ص95؛ علي جمعة محمد: **المكاييل والموازين الشرعية**، ط2، دار القدس، القاهرة، 2001، ص53.

ويقدّر الميل حاليا ب 1,609 كلم.

8– ابن رسته: المصدر السابق، ص114.

طولها تسعة أميال،[1] وذكر جغرافيون آخرون أن طول المدينة من الشرق إلى الغرب يبلغ ثمانية وعشرين ميلا.[2] أما الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي فذكر أن استدارة المدينة تبلغ ثمانية عشر ميلا.[3]

لكن هذه الأرقام لا تخلو من المبالغة، إذ يرى البعض أن طول المدينة لم يتجاوز في أقصى اتساع لها نحوا من ثلاثة أميال ومحيطها حوالي عشرة أميال.[4] وبالنسبة للجغرافيين الذين ذكروا أن طول المدينة ثمانية وعشرون ميلا، فإنهم في وصفهم خلطوا بين مدينتي روما والقسطنطينية، فطول مدينة روما من بابها الشرقي إلى بابها الغربي قدَّره عدد من الجغرافيين المسلمين بثمانية وعشرين ميلا.[5]

وحري بنا الإشارة إلى أن القسطنطينية –كغيرها من المدن– ظل حجمها يتطور باستمرار مع مرور الوقت.

قسَّم ابن بطوطة المدينة إلى قسمين يفصل بينهما خليج صغير يعرف بالقرن الذهبي[6] ففي جنوب هذا الخليج[7] يقع القسم المعروف بإصطنبول[8] وفيه يسكن الإمبراطور

1– الإدريسي: المصدر السابق، ص801؛ وأنظر أيضا ابن الوردي سراج الدين: **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، تح أنور محمود الزناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص171.

2– الحميري: المصدر السابق، ص482؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص377؛ البكري أبو عبيد: **المسالك والممالك**، ج2، تح جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص46.

3– التطيلي بنيامين: **رحلة بنيامين التطيلي**، تر عزرا حداد، دراسة وتقديم عبد الرحمان عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002، ص219.

4– جيبون: المرجع السابق، ص351.

5– ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص101؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص140؛ الحموي: معجم البلدان، مج3، ص101.

6– يسميه ابن بطوطة نهر أبسمي (Bsumi). أنظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251. وعن تسمية الخليج بالقرن الذهبي وأهميته أنظر ص ص38–39 من هذا البحث.

7– ذكر ابن بطوطة أن قسمي المدينة يقعان شرقي وغربي هذا الخليج، والأصح أن أحدهما يقع جنوبه والآخر شماله.

8– عن هذه الكلمة أنظر ص ص45–46 من هذا البحث.

البيزنطي وكبار الشخصيات وكذا عامة الناس، أما القسم الثاني فيسمى بالغلطة (Galata) ويقع شمال القرن الذهبي وهو مخصص للتجار الأوروبيين الذين يأتون إلى المدينة.[1]

3/ خليج القسطنطينية:

تناول الجغرافيون المسلمون خليج القسطنطينية بإسهاب، فتحدثوا عن طوله وعرضه في كل منطقة منه والمدن الواقعة على ضفافه، وعن أبراج الحراسة في مداخله...

أ/ طول الخليج:

انحصرت تقديرات معظم الجغرافيين المسلمين لطول الخليج من بحر مانطس (البحر الأسود) إلى بحر إيجة[2] فيما بين 250 و 360 ميل،[3] وإذا كانت تقديرات هؤلاء الجغرافيين أكبر بكثير من الطول الحقيقي لخليج القسطنطينية –حوالي 195 ميلا– فإن الجغرافي أبا الفداء قدَّره بأقل من طوله الواقعي، حيث ذكر أنه يبلغ سبعين ميلا.[4]

1– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251.

Charles Diehl : **Byzantine Civilisation**, in the Cambridge Medieval History, vol 4, Cambridge University press, 1923, p762.

2– لم تميز المصادر العربية بين بحر إيجة والبحر المتوسط فكانت تشير إليهما على أنهما بحر واحد (بحر الروم).

3– قدَّره شمس الدين الدمشقي ب 250 ميلا. الدمشقي: المصدر السابق، ص192. وذكر المسعودي أن طوله يتراوح ما بين 300 و 360 ميلا. المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص95، 241؛ المسعودي أبو الحسن علي: **التنبيه والإشراف**، تح إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د ت، ص ص59، 120. أما ابن خرداذبه والإدريسي فذكرا أن طول الخليج يقدر ب 320 ميلا. ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص 93؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص804. وأشار الحميري إلى أن طوله يبلغ 350 ميلا. الحميري: المصدر السابق، ص204. في حين قدَّره البكري ب 360 ميلا. البكري: المصدر السابق، ج1، ص151.

4– أبو الفداء عماد الدين إسماعيل: **تقويم البلدان**، صححه رينود وماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830، ص34.

وينقسم خليج القسطنطينية إلى ثلاثة أقسام هي: البوسفور،[1] بحر مرمرة[2] والدردنيل،[3] حيث يتدفق مضيق البوسفور من البحر الأسود إلى أن يصل مدينة القسطنطينية ليتصل عندها ببحر مرمرة الذي يستمر جنوبا إلى أن يلتقي بمضيق الدردنيل والذي يتصل بدوره ببحر إيجة.

قدَّر أبو الفداء طول البوسفور بحوالي خمسين ميلا[4] وقدَّره جغرافيون آخرون بستين ميلا،[5] غير أن هذه التقديرات لم تكن صحيحة، واستدرك أبو الفداء خطأه في موضع آخر من كتابه فذكر أن ما بين القسطنطينية وفم الخليج عند البحر الأسود يقدَّر بستة عشر ميلا،[6] وهو ما يقارب الطول الحقيقي للمضيق والمقدَّر بحوالي 18.66 ميلا (30 كلم).[7]

أما القسمان الثاني والثالث فقدَّر الجغرافيون المسلمون أن طولهما يتراوح بين 250[8] و 260 ميلا،[9] وقدَّره ابن خرداذبه ب100ميل،[10] غير أن هذه الأرقام لم تكن دقيقة إذ يقدَّر

1- تعني الكلمة ممر الثور. عن المضيق أنظر مصطفى أحمد أحمد، حسام الدين إبراهيم عثمان: **الموسوعة الجغرافية**، ج2، دار العلوم، القاهرة، 2004، ص103.

2- عن هذا البحر أنظر المرجع نفسه، ص39.

3- عن هذا المضيق أنظر المرجع نفسه، ص103.

4- أبو الفداء: المصدر السابق، ص213. نقلا عن كتاب بسط الأرض في الطول والعرض لابن سعيد المغربي.

5- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص12، ج2 ص804، 905؛ النويري شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج1، تح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص222.

6- أبو الفداء: المصدر السابق، ص34.

7- مصطفى أحمد أحمد، حسام الدين إبراهيم عثمان: المرجع السابق، ص103.

8- النويري: المصدر السابق، ص222؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص804.

9- قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص50.

10- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93.

الطول الحقيقي للقسمين المذكورين بحوالي 177 ميلا (285 كلم).[1]

ب/ عرض الخليج:

يختلف عرض الخليج من منطقة إلى أخرى فيضيق تارة ويتسع أخرى، وقدَّر الجغرافيون المسلمون مدخل الخليج عند البحر الأسود –أي مدخل مضيق البوسفور – بستة أميال[2] وذكر بعضهم أنه يبلغ عشرة أميال.[3] وتشير المراجع إلى أن أقصى عرض للبوسفور يبلغ حوالي 1.5 ميل (قرابة 3 كلم).[4]

كما أشار الجغرافيون المسلمون إلى وجود مدينة على مدخل الخليج تدعى "مسناة"[5] وسماها المسعودي في مروج الذهب بـ"سباه"،[6] وكانت هذه المدينة تتكفل بصد سفن الأمم المجاورة التي تنوي الهجوم على القسطنطينية عبر البحر الأسود.[7]

أما عرض الخليج عند القسطنطينية فقد حدده الجغرافيون المسلمون بثلاثة أميال[8] أو أربعة،[9] ويقابل القسطنطينية في الجهة الأسيوية للخليج قلعة خراب سماها أبو الفداء

1- يقدَّر طول بحر مرمرة ب 225 كلم، أما طول الدردنيل فيقدَّر ب 60 كلم. أنظر مصطفى أحمد أحمد، حسام الدين إبراهيم: المرجع السابق، ص 39، 103.

2- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص92؛ البكري: المصدر السابق، ج1، ص151؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص12، مج2، ص804.

3- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص241؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص121؛ البكري: المصدر السابق،ج1، ص151؛ الحميري: المصدر السابق، ص221؛ النويري: المصدر السابق، ص222.

4- جيبون: المرجع السابق، ص347، مصطفى أحمد أحمد، حسام الدين إبراهيم: المرجع السابق، ص103.

5- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص92؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص121؛ البكري: المصدر السابق، ج1، ص151؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص804؛ الحميري: المصدر السابق، ص221.

6- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص241.

7- نفسه؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص121-122.

8- قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص50؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص192.

9- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص151؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص12، مج2، ص804؛=

بـ "الجرون".[1] والتي يُرجَح أنها مدينة خلقدونية (Chalcedon)*

وحين يجاوز الخليج مدينة القسطنطينية يأخذ في الاتساع، حيث يبدأ بحر مرمرة الذي حدّد المسعودي عرضه في كتاب "مروج الذهب" بنحو خمسين ميلا،[2] وفي كتاب "التنبيه والإشراف" ذكر بأن أوسع عدوة يمكن من خلالها قطع خليج القسطنطينية تقدّر بأربعين ميلا،[3] ولعل الرأي الأخير هو الأقرب إلى الصواب إذ يقدر أقصى اتساع لبحر مرمرة –وهو القسم الأعرض في الخليج– ب 65 كلم (قرابة 40.5 ميل).[4]

كما قدَّر الجغرافيون المسلمون عرض الخليج عند مصبه في البحر الشامي بغلوة سهم[5] – أي بمقدار رمية سهم– وذكروا أنه يوجد هناك برج لمراقبة حركة السفن.[6]

ج/ ميناء القسطنطينية:

في شمال القسطنطينية يخرج من البوسفور خليج صغير يمتد غربا نحو سبعة أميال،[7] مشكلا ميناءً طبيعيا مميزا للمدينة،[8] عُرف باسم القرن الذهبي حيث أنه يشبه في

= الحميري: المصدر السابق، ص221؛ النويري: المصدر السابق: 222.

1– أبو الفداء: المصدر السابق، ص32.

* أنظر الملحق رقم01 ص97.

2– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص95.

3– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص121.

4– مصطفى أحمد أحمد، حسام الدين إبراهيم: المرجع السابق، ص39.

5– ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص50؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص137؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص804، الدمشقي: المصدر السابق، ص192؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص213؛ النويري: المصدر السابق، ص222.

6– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص241؛ قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص50؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص137؛ الحميري: المصدر السابق، ص221.

7– رنسيمان: المرجع السابق، ص4؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ص165. وأنظر أيضا Charles William Chadwick : **The Byzantine Empire, London**, 1902, p5.

8– John Rosser: **Historical Dictionary of Byzantium** , Scarecrow press, U.S.A, 2001,=

شكله قرن غزال، أما لفظ الذهبي فهو تعبير عن الثروات المتدفقة نحوه،[1] ففيه تسهل عملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر.[2]

ولا يزيد مدخل الميناء عن 500 ياردة (حوالي 0.45 كلم)[3] ما يسهل حمايته، إذ يذكر الجغرافيون المسلمون أن بالخليج سلسلة تمنع السفن من الدخول إلا بإذن،[4] لكنهم حددوا موقع هذه السلسلة عند مدينة أبيدوس* Abydos الواقعة قرب مصب خليج القسطنطينية، والأصح أن السلسلة تقع عند مدخل الميناء.[5]

ويذكر النويري أن الحيلة الشهيرة التي استخدمها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان[6] لخطف أحد بطارقة القسطنطينية كانت سببا في وضع هذه السلسلة.[7]

= p97; Hans Pohlsander: **The Emperor Constantine**, Second Edition, Routledge press, London, 2004,p64

1- محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000، ص29؛ جيبون: المرجع السابق، ص ص347-348.

2- محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص29.

3- نفسه.

William Holden Hutton: **The Story of Constantinople**, London, 1921, p3.

4- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص122؛ الإصطخري أبو إسحاق: **المسالك والممالك**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004، ص50؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص137؛ ابن حوقل النصيبي: **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص178؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص192؛ النويري: المصدر السابق، ص222.

* سماها المسعودي "أبدو" أنظر المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ص121-122. وسماها ابن الفقيه "أبدس". ابن الفقيه: المصدر السابق، ص136. أما الإدريسي فسماها "أبذس". الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص204. وسماها الحموي "أندس". الحموي: معجم البلدان، ج1، ص261. في حين سماها كل من المهلبي والحميري ب "أندلس". المهلبي: المصدر السابق، ص61؛ الحميري: المصدر السابق، ص221.

5- William Holden: Op. cit, p3; Johnathan Harris: **Constantinople Capital of Byzantium**, Hambledon continuum, London, 2007, p44.

6- عن الخليفة معاوية (41-60هـ/ 661-680م) أنظر العسقلاني: الإصابة...، ج10، ص227 فما بعدها بعدة صفحات.

7- راجع القصة كاملة عند النويري: المصدر السابق، ج6، تح علي بوملحم، ص156 فما بعدها.

4/ بعض المسالك المؤدية للمدينة:

لم يفت الجغرافيين المسلمين التطرق للمسالك المؤدية لمدينة القسطنطينية، فاهتمامهم بوصف هذه المسالك يعود إلى وجود دار للمسلمين بالقسطنطينية،[1] كما أن المسلمين يقصدون المدينة لشراء الأسرى وتبادل المراسلات الدبلوماسية وأيضا للغزو.[2]

ذكر ابن رسته على لسان هارون بن يحي –الذي أسره الروم واقتادوه للقسطنطينية– طريقا يمتد من عسقلان إلى القسطنطينية،[3] فمن عسقلان أبحروا ثلاثة أيام إلى مدينة أنطاليا، ثم ساروا إلى نيقية في ثلاثة أيام أخرى، ومنها يومان إلى مدينة تدعى سنقرة،[4] ومن هذه المدينة خرجوا مشيا فساروا مقدار يومين إلى أن وصلوا للبحر فأبحروا يوما ليصلوا إلى القسطنطينية.[5] وبهذا قُدرت المسافة من عسقلان إلى القسطنطينية بأحد عشر يوما.[6]

وذكر الإدريسي مسلكا يمتد من القسطنطينية إلى مدينة أطرابزندة[7] الواقعة في الساحل

1– ذكرها المقدسي، ورجحت الأستاذة ليلى عبد الجواد إسماعيل أنه يقصد بها دار البلاط التي كان ينزل بها كبار الشخصيات الإسلامية سواء من السفراء أو الأسرى. أنظر ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ص166، الحاشية رقم 75.

2– المقدسي: المصدر السابق، ص153.

3– أنظر للمسار الذي ذكره هارون بن يحي من مدينة أنطاليا إلى القسطنطينية في الملحق رقم 2 ص99.

4– لم أستطع تحديد مكان هذه المدينة في الخريطة لذلك تجاهلتها أثناء رسمي للمسار، وقد يكون موقعها على نهر سانجريوس Sangrios الوارد في الخريطة.

5– أنظر ابن رسته: المصدر السابق، ص ص113–114.

6– قدَّر الأستاذ محمد قويسم مسافة اليوم بحوالي 50 كلم، أنظر قويسم محمد: مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط **دورية كان التاريخية**، ع13، سبتمبر 2011، ص57. لكن تنبغي الإشارة إلى أن هذا التقدير يظل نسبيا، حيث تختلف ظروف كل رحلة عن الأخرى.

7– حاليا هي مدينة طرابزون Trabzon الواقعة في شمال شرق تركيا.

الجنوبي الشرقي للبحر الأسود.[1]

أما ابن حوقل فأشار إلى أن المسافة بين مدينتي كمخ والقسطنطينية تقدر بأربعين مرحلة،[2] فمن كمخ إلى ملطية عشر مراحل ومنها إلى أنقرة عشرون مرحلة، ثم إلى القسطنطينية عشر مراحل أخرى.*[3]

قدَّر بعض الجغرافيين المسافة بين القسطنطينية وروما بحوالي أربعين[4] أو خمسين يوما،[5] وبالغ ابن الفقيه في تقديره فذكر أن بينهما مسيرة سنة،[6] أما ابن رسته فوصف المسلك الرابط بين المدينتين.[7]

1- للمزيد أنظر الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص906 فما بعدها. وقد حاولت تحديد المدن التي ذكرها الإدريسي لكني لم أستطع.

2- المرحلة هي ما يقطعه المسافر في نحو يوم على الدابة. وقدرتها بعض المراجع بين ثلاثين وثمان وثلاثين كيلومتر. أنظر محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص435؛ قويسم محمد: المرجع السابق، ص56.

* أنظر لهذه المدن في الملحق رقم 2 ص98.

3- ابن حوقل: المصدر السابق، ص178.

4- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص153.

5- الحموي: معجم البلدان، ج3، ص100.

6- ابن الفقيه: المصدر السابق، ص139.

7- أنظر ابن رسته: المصدر السابق، ص120. وقد حاولت تتبع هذا المسار في الخريطة لكني لم أوفق.

ثانيا: الجانب السياسي:

1/ الإمبراطور قسطنطين وتأسيسه القسطنطينية:

تكلم الجغرافيون المسلمون عن شخصية الإمبراطور قسطنطين الأول (306-337م) وتأسيسه لمدينة القسطنطينية، فذكروا أنه يدعى قسطنطين بن قسطنس،[1] ويعرف بأمه هيلاني،[2*] دامت مدة حكمه إحدى وثلاثين سنة،[3] وقيل أنه حكم خمسا وعشرين سنة فقط،[4] وقيل اثنان وثلاثون سنة.[5]

كان قسطنطين أول ملوك الروم تنصراً،[6] غير أن الجغرافيين المسلمين – على غرار

1- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص118؛ وسماه الزهري " قسطنطين بن ميلا ". الزهري أبو عبد الله محمد: **كتاب الجغرافية**، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د ت، ص73. أما القزويني فسماه "قسطنطين بن ساويرس ". القزويني زكريا: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د ت، ص603. في حين سماه القلقشندي "قسطنطين بن قسطنش " القلقشندي: المصدر السابق، ص392. وتذكر المراجع اسم أبيه ب "قسطنطيوس" Constantuis . أنظر جيبون: المرجع السابق، ص224.
Hans Pohlsander : Op. cit, p8.

* ولدت القديسة هيلانة حوالي سنة 250م، بآسيا الصغرى وتزوجها قسطنطيوس فأنجبت له قسطنطين سنة 274م، لكن قسطنطيوس طلقها سنة 292م لأسباب سياسية، توفيت هيلانة سنة 330م ويحتفل بعيد ميلادها في الثامن عشر أوت من كل عام. أنظر إسحاق عبيد: قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع، **المجلة التاريخية المصرية**، مج 17، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مصر، 1970، ص ص5-6.

2- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص118.

3- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240. وعن مدة حكم قسطنطين وباقي أباطرة الدولة البيزنطية أنظر السيد الباز العريني: **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، مصر، 1982، ص894 فما بعدها بعدة صفحات.

4- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240؛ البكري: المصدر السابق، ج1، ص ص236-237.

5- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص119.

6- الزهري: المصدر السابق، ص73.

سائر المؤرخين –[1] اختلفوا في سنة اعتناقه المسيحية، فذكر البكري بأن تنصره كان بعد سنة من توليه الملك،[2] وقال المسعودي بأن ذلك كان بعد عشرين سنة من مُلكه.[3]

وذكر الجغرافيون المسلمون روايتين عن تنصر قسطنطين حيث جاء في الأولى أنه تحول إلى دين النصرانية خلال إحدى حروبه، ففي وقت كانت كفة المعركة تميل لأعدائه رأى قسطنطين في منامه أنه يرفع الصليب فينتصر به ففعل ذلك وانتصر على عدوه.[4]

وتقول الرواية الثانية بأن الإمبراطور قسطنطين أصيب بمرض الجذام،[5] فداواه منه أسقف روما بالدعاء فقط، وإثر ذلك تحول إلى المسيحية وبنى القسطنطينية.[6] وذكر المسعودي أنه لم يكن مسموحا عند الوثنيين أن يتولى الملك من كان مصابا بهذا المرض، في حين كانت النصرانية تسمح بذلك، الأمر الذي جعل قسطنطين يفكر في اعتناق هذه الديانة.[7]

1– حصل خلاف بين المؤرخين حول تنصر قسطنطين وتوقيته، وتذكر إحدى الروايات أنه تم تعميده سنة 312م، غير أن هناك من يرفضها ويأخذ بالرواية التي تذكر أنه تم تعميده قبيل وفاته. أنظر
Hans Pohlsander: Op. Cit, p22 sqq.

2– البكري: المصدر السابق، ج1، ص236.

3– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص124.

4– البكري: المصدر السابق، ج1، ص236؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240. الدمشقي: المصدر السابق، ص341. قارن ب رأفت عبد الحميد: **الدولة والكنيسة**، ج2، ط3، دار قباء للطباعة، مصر، 1999، ص ص101–102.
Eusebius Pamphilus : **The Life of the Blessed Emperor Constantine**, in The Greek Ecclesiastical History, Book 1, London, 1845, p26 sqq.

5– يسمى أيضا مرض هانسن، وهو مرض مزمن ومعد، يؤثر بالأساس على الجلد، ورغم أنه لا يعد من الأمراض القاتلة إلا أن إهمال علاجه يؤدي إلى تشوهات قد تشل اليدين والقدمين. أنظر الموسوعة العربية العالمية، ج8، ص237.

6– البكري: المصدر السابق، ج1، ص236.

7– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص119.

وعن بناء القسطنطينية ذكر الجغرافيون المسلمون أن قسطنطين الأكبر انتقل إلى بيزنطية،[1] وبنى عليها سوراً مبالغا في تحصينها وإحكام بنائها، ولم تزل الروم تنتقل إليها حتى صارت قاعدة الملك.[2]

وبخصوص الأسباب التي دفعت الإمبراطور قسطنطين إلى بناء عاصمة جديدة يذكر إسحاق بن الحسين أن عدم قدرة قسطنطين على إظهار تنصره بمدينة روما دفعه لبناء مدينة جديدة.[3] ويشير المسعودي إلى أن أهمية موقع مستوطنة بيزنطة وحصانته كانا عاملا مهما في دفع قسطنطين إلى تأسيس عاصمة جديدة في هذا المكان.[4]

كما أشار الجغرافيون المسلمون إلى عامل مهم آخر يتمثل في التهديد الذي تتعرض له أطراف الدولة –بالأخص الجهة الشرقية– من قبل الأمم المجاورة كالفرس مثلا،[5] وبالتالي فإن قسطنطين كان يهدف من خلال بناء مدينته الجديدة إلى الاقتراب من منطقة الصراع لدحر أعدائه، وأخطأت الأستاذة ليلى عبد الجواد حين فهمت من السبب الأخير أن مدينة روما لم تعد آمنة كعاصمة، وبالتالي وجب على قسطنطين البحث عن

1- مستوطنة يونانية أقامها ملاحون يونان من مدينة ميجارا سنة 657 ق.م، وسميت بيزنطة نسبة إلى القائد بيزاس Byzas الذي يرجع إليه الفضل في اختيار موقع المستوطنة. للمزيد أنظر رنسيمان: المرجع السابق، ص3؛ حسنين ربيع: المرجع السابق، ص31؛ أحمد زكي بك: **قاموس الجغرافية القديمة**، المطبعة الأميرية، مصر، 1899، ص ص26-27.

John Rosser : Op. Cit, p p65-66.

2- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ إسحاق بن الحسين: المصدر السابق، ص116؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص347.

3- إسحاق بن الحسين: المصدر السابق، ص116.

4- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص122.

5- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص239؛ البكري: المصدر السابق، ج1، ص236؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص341.

عاصمة أكثر أمانا،[1] فالمصادر الجغرافية الإسلامية لم تشر إلى أن التهديد يمس العاصمة روما وإنما ذكرت بأن الأمم المجاورة كانت تتهدد أطراف الدولة.

ومعروف أنه تم الشروع في بناء المدينة سنة 324م، وأقيم حفل تدشينها في 11 ماي 330م، وقد أطلق عليها اسم روما الجديدة،[2] غير أنه لم يكن الوحيد للمدينة التي عرفت بعدة أسماء أخرى ذكر بعضها الجغرافيون المسلمون.

2/ بعض تسميات المدينة:

إذا كان قسطنطين قد أطلق على مدينته تسمية روما الجديدة تيمنا بالعاصمة الأولى للإمبراطورية، فإن سكانها أبوا إلا أن يضيفوها إليه ويسمونها باسمه،[3] فكان أكثر أسمائها شيوعا هو القسطنطينية.

وأورد الجغرافيون المسلمون اسما آخر للمدينة هو اصطنبول،[4] وذكر الرحالة ابن بطوطة أن اصطنبول قسم من أقسام المدينة،[5]

لعل السؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ الآن يتمحور حول العلاقة بين الاسم الذي ذكره الجغرافيون المسلمون وتسمية إسلام بول التي أطلقها العثمانيون على المدينة حين فتحها والتي تنطق الآن استنبول؟

1- ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ص160.

2- نفسه؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص6، جيبون: المرجع السابق، ص356؛ حسنين ربيع: المرجع السابق، ص32.

3- الحموي: معجم البلدان، مج4، ص347؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص120.

4- الحموي: معجم البلدان، مج1، ص261؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص341؛ القطيعي البغدادي: المصدر السابق، مج1، ص88.

5- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251.

أخطأ الأستاذ حسين مؤنس حين ربط تسمية اصطنبول –أو اصطمبول كما أوردها مؤنس – التي وجدها عند ابن بطوطة بالتسمية التي أطلقها العثمانيون على المدينة – إسلام بول– حيث قال: "ويسترعي نظرنا أنه يقول (يقصد ابن بطوطة): إن نصف المدينة الذي فيه قصر السلطان يسمى اصطمبول، فكأن هذا الاسم كان معروفا قبل استيلاء المسلمين على هذا البلد، وقد كنا نحسب أن الأتراك العثمانيين هم الذين أطلقوا الاسم على ذلك البلد، فسموه إسلامبول: أي مدينة الإسلام، ثم حرف الاسم إلى إستامبول أو اصطمبول، ولكن ها هو ذا معروف مستعمل قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية بأكثر من مئة سنة."[1]

إن تشابه لفظ اصطنبول الذي أورده الجغرافيون المسلمون مع الاسم الذي أطلقه العثمانيون على المدينة حين فتوحها سنة 1453م، لا يعني بتاتا تشابههما من ناحية المعنى ذلك أن المسعودي قدم شرحا وافيا لمعنى اللفظ الأول حين ذكر أن الروم تدعوها –أي القسطنطينية – بولن (معناها المدينة)، وإذا أرادوا تعظيمها والإشارة إلى أنها دار الملك ذكروها باسم "استن بولن Is-Tin-polin" وتعني في اليونانية "إلى المدينة".[2]

وتفرد الجغرافيون المسلمون بذكر اسم للقسطنطينية لم يعرف عند غيرهم، وهو "فروق" وكان الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ/845م) أول من ذكر هذا الاسم حين قال:

وقعة زعزعت مدينة قسطن طين حين ارتخت بسور فروق

1– حسين مؤنس: المرجع السابق، ص147.

2– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص120؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ص160؛ شاكر الفحام: التعريف والنقد اصطنبول، **مجلة مجمع اللغة العربية**، مج64، ج1، مجمع اللغة العربية، دمشق، جانفي 1989، ص135–136.

Dentrius John Georgacas : The Names of Constantinople, in **Transaction and Proceedings of the Amrican Philological Association**, vol78, The Johns Hapkins University press, USA, 1947, p366-367.

وذكر الحموي أنه قصد بفروق القسطنطينية، وسوق فروق هو موضع بها.[1]

3/ الإمبراطور ونظام الحكم:

لم تركز المصادر الجغرافية العربية كثيرا على منصب الإمبراطور، غير أنها أشارت إلى مكانته في نفوس البيزنطيين "**إذ يعد أكبر الروم في أنفسهم وأعزه عليهم**"،[2] ويتفرد الملك بلبس الفرفير (من أنواع الحرير) والخف الأحمر، وكل من يلبس ذلك من غير الملك يتعرض للقتل،[3] أما ولي العهد فيلبس فرداً أحمر وآخر أسود.[4]

وعن نظام المُلك ذكر ابن خرداذبه أنه لا يعتمد على الوراثة، وإنما يقوم على الغلبة، كما أنه ليس مقتصراً على الرجال دون النساء.[5]

4/ سجون القسطنطينية:

تطرق الجغرافيون المسلمون في حديثهم عن مدينة القسطنطينية إلى سجونها، فذكر ابن رسته أنه يوجد بالقصر الإمبراطوري[6] دهليز طوله مائتا خطوة وعرضه خمسون خطوة، مفروش بالرخام وفيه أربعة حبوس، واحد للمسلمين وثان لأهل طرسوس،[7] أما

1- المسعودي: معجم البلدان، مج4، ص258؛ القطيعي البغدادي: المصدر السابق، مج3 ص1033.

2- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص97.

3- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص97؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص147.

4- المسعودي أبو الحسن علي: **أخبار الزمان**، دار الأندلس، بيروت، 1996، ص100.

5- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص97.

والواقع أنه تداولت على الحكم عدة أسر توارث أفرادها الملك كأسرة قسطنطين وأسرة جستنيان...

6- عن القصر الإمبراطوري أنظر ص ص84-85 من هذا البحث

7- تقع مدينة طرسوس حاليا جنوب تركيا، ولا شك أن تخصيص سجن لأهلها بالقصر الإمبراطوري يبرز علاقة خاصة بينها وبين القسطنطينية، ونفس الأمر بالنسبة للمسلمين.

الثالث فمخصص للعامة والأخير لصاحب الشرطة.[1]

ولعل أهم سجن اهتم المسلمون بذكره هو دار البلاط، التي كان ينزلها أشراف المسلمين إذا أسروا، والسفراء والدبلوماسيون إذا وفدوا للمدينة، وتقع الدار على حافة البحر يفصل الميدان (الهبدروم Hippodrome) بينها وبين القصر الامبراطوري.[2]

وكان بناء دار البلاط من بين الشروط التي فرضها المسلمون على الإمبراطور ليو الثالث[3] Leo III أثناء حملة مسلمة بن عبد الملك* على المدينة.[4]

وقد جاء ذكر دار البلاط في بعض أشعار العرب، إذ ذكرها أبو العباس الصفري – شاعر سيف الدولة الحمداني – حينما كان محبوسا، حيث قال:

أراني في حبسي مقيما كأنني ولم أُغْزَ في دار البلاط مقيم[5]

5/ نماذج لمحاولات المسلمين فتح القسطنطينية:

تعددت حملات المسلمين على القسطنطينية وقد جاء في كتابات الجغرافيين المسلمين إشارات لبعضها كحملة يزيد بن معاوية،[6] الذي حاصر المدينة سنة 49هـ/669م. لكنه لم يستطع دخولها فانسحب بعد أن استشهد العديد من جنده، وعلى رأسهم الصحابي أبو

1- ابن رسته: المصدر السابق، ص115.

2- المقدسي: المصدر السابق، ص153.

3- حكم ما بين 717-740م، وهو مؤسس الأسرة الإيسورية.

* أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، لقب بالجرادة الصفراء لاصفرار جلده، كانت له فتوح كثيرة جليلة. توفي سنة 120هـ/738م. أنظر الذهبي: سير...، ج5، ص ص241-242.

4- المقدسي: المصدر السابق، ص153.

5- الحموي: معجم البلدان، مج1، ص477.

6- يزيد بن معاوية، ثاني خلفاء الدولة الأموية (60-64هـ/680-683م) من أهم ما يحسب له غزوه القسطنطينية في عهد أبيه. أنظر الذهبي: سير...، ج4، ص35 فما بعدها من صفحات.

أيوب الأنصاري،[1] الذي تم دفنه عند أسوار القسطنطينية بعد أن حذر المسلمون الروم من مغبة نبش قبره، وظل الروم بعد ذلك يعظمون قبره ويستسقون به إذا قحطوا.[2]

وتطرق الجغرافيون المسلمون لحملة ثانية هي حملة مسلمة بن عبد الملك وما نجم عنها من نتائج خاصة اضطراب الحكم بالقسطنطينية بعد الحملة،[3] واشتراط مسلمة على الروم بناء دار للمسلمين –كما سبق ذكره– وجامع لهم، ذكر الهروي أن موقعه كان بجنب قبر أبي أيوب الأنصاري.[4] كما أشار الإمبراطور قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس Constantine VII Porphyrogienitus لهذا المسجد في كتابه.[5]

6/ ذكر بعض الأباطرة:

لم يكتف الجغرافيون المسلمون بالحديث عن الإمبراطور قسطنطين الأول فقط، وإنما تطرقوا أيضا لخلفائه وفترات حكمهم، فكان من بين الأباطرة الذين جاء ذكرهم

1– أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد بن كليب، أسلم قبل الهجرة، وروى بعض الأحاديث عن النبي صلى الله عليه و سلم، استشهد أثناء حصار المسلمين للقسطنطينية في حملة يزيد بن معاوية. أنظر العسقلاني: الإصابة...، ج3، ص143 فما بعدها.

2– الهروي أبو الحسن علي: **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص53.

3– البكري: المصدر السابق، ج1، ص239. ولمزيد من التفاصيل عن حملة مسلمة بن عبد الملك راجع المسعودي: التنبيه والإشراف، ص141؛ الطبري محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، ج6، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، د ت، ص ص530–531؛ ابن كثير عماد الدين: **البداية والنهاية**، ج13، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، 1998، ص102.
George Ostrogorsky : **History of the Byzantine state**, Translated by Joan Hussey, Oxford, 1968, p p156-157.

4– الهروي: المصدر السابق، ص53.

5– قسطنطين السابع بورفيروجنتيوس: **إدارة الإمبراطورية البيزنطية**، تر محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص83.

الإمبراطور جوليان (يوليان) المرتد[1] Julian the Apostate ابن أخ الإمبراطور قسطنطين الأول، دام حكمه سنتين (361-363م)،[2] حاول خلالهما إحياء الوثنية والقضاء على الدين المسيحي، فاضطهد المتنصرين وسُمي لأجل ذلك بالمرتد، قُتل في إحدى حروبه مع الفرس،[3] وهو في الخامسة والثلاثين من العمر.[4]

ومن بين الأباطرة الذين أشار إليهم الجغرافيون المسلمون نجد أيضا الإمبراطور هرقل Heracules الذي أخطأ المسعودي حين قال بأن أول سنة من حكمه تصادف سنة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم نحو المدينة المنورة،[5] ونفس الأمر بالنسبة للبكري الذي ذكر أن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم كانت بعد سبع سنوات من ملك هرقل،[6] لكن القلقشندي صحح ذلك حين ذكر بأن إحدى عشر سنة تفصل بين تولي هرقل الحكم وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم،[7] ذلك أن حكم هرقل بدأ في أكتوبر 610م، واستمر إلى غاية وفاته سنة 640م،[8] ومن أهم الأحداث التي عرفتها هذه الفترة حروبه مع الفرس واسترجاعه عدة أراض منهم.[9]

1- سماه المسعودي يوليانوس المسعودي: التنبيه والإشراف، ص125. وذُكر في مصادر أخرى باسم يوليانيش ولليانش. أنظر البكري: المصدر السابق، ج1، ص237؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص393.

2- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص125؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص393؛ دونالد نيكول: **معجم التراجم البيزنطية**، تر حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003، ص109.

Hans Pohlsander : Op.Cit, p105.

3- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص125؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص393؛ البكري: المصدر السابق، ج1، ص237.

4- دونالد نيكول: المرجع السابق، ص109.

5- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص134.

6- البكري: المصدر السابق، ج1، ص238.

7- القلقشندي: المصدر السابق، ص396.

8- دونالد نيكول: المرجع السابق، ص165.

9- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص134؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص396. وللمزيد عن حروبه مع=

ومن الأباطرة الذين كانت لهم علاقات حربية مع المسلمين نجد الإمبراطور كونستانز الثاني Constans II (641-668م)، حيث خرج على رأس أسطول عسكري يريد مدينة الاسكندرية، لكن المسلمين تمكنوا من صده وإلحاق الهزيمة به بعد معركة بحرية قاسية سنة 34هـ/655م،[1] عُرفت في المصادر الإسلامية بذات الصواري،[2*] وذكر المسعودي أن الإمبراطور كونستانز انتقل بعد نجاته في المعركة إلى جزيرة صقلية أين قتله ملكها،[3] لكن ذلك غير دقيق زمنيا، إذ أن مقتل الإمبراطور كونستانز كان سنة 668م،[4] أي بعد حوالي ثلاثة عشر سنة من المعركة المذكورة.

= الفرس أنظر.

Ostrogosky: Op.Cit, p92 sqq.

1- اختلفت المصادر الإسلامية في تحديد سنة المعركة فذكرت أنها كانت سنة 31هـ أو 34هـ. أنظر الطبري: المصدر السابق، ج4، ص288؛ ابن الأثير عز الدين: **الكامل في التاريخ**، مج3، تح أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص13؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص237.

* سميت المعركة بذات الصواري، لكثرة صواري السفن بها، والصارية هي عمود يقع في وسط السفينة ينصب عليه الشراع. أنظر المسعودي: التنبيه والإشراف، ص135.

2- نفسه. وللمزيد من التفاصيل عن هذه المعركة أنظر الطبري: المصدر السابق، ج4، ص288 فما بعدها بعدة صفحات؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ص13-14؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص237.

3- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص135.

4- دونالد نيكول: المرجع السابق، ص143.

ثالثا: الجانب الإداري:

1/ كبار موظفي الدولة:

صنَّف الجغرافيون المسلمون كبار موظفي الدولة البيزنطية حسب أهميتهم، فذكروا أن الإمبراطور يأتي على رأس الجهاز الإداري، ويليه اللغثيط Logothete ، ويعتبر منصب البطريق من المناصب الهامة في الدولة كذلك.

أ/الوزير:[1]

وصف الجغرافيون المسلمون مراسيم تنصيبه، ويكون ذلك عند خروج الإمبراطور للكنيسة العظمى (آيا صوفيا)،[2] فحين يصل الإمبراطور إلى باب الكنيسة يُقدم له طشت وإبريق، فيغسل يديه ويخاطب وزيره بأنه يتبرأ من دماء الناس، ويجعلها في رقبته (أي

1- لم يقصد به الجغرافيون المسلمون الكلام عن منصب الوزارة، وإنما أرادوا به منصب كبير الوزراء الذي كان يترأس كل الإدارات بالعاصمة. لتفاصيل أكثر عن هذا المنصب أنظر نورمان بينز: **الإمبراطورية البيزنطية**، تر حسين مؤنس – محمود يوسف زايد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950، ص ص148-149.

2- شيدت الكنيسة في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول – أُطلق عليها في البداية اسم الكنيسة الكبيرة – لكنها احترقت سنة 404م، فجددها الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (408-450م)، إلا أنها أُحرقت مرة أخرى سنة 532م، أثناء ثورة نيقا، فعهد الإمبراطور جستنيان (527-565م) إلى كل من أنتيميوس الترالي Anthemius of Tralles و إيزيدور المليتي Isidore Of Miletus بإعادة بنائها، وافتتحت سنة 537م، لكنها سرعان ما تصدعت بفعل الزلازل، فأعاد جستنيان ترميمها وظل يفاخر بجمالها وأبهتها وأنه تفوق ببنائها على النبي سليمان –عليه السلام– باني الهيكل –معبد القدس– . أنظر رنسيمان: المرجع السابق، ص33؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص184، الحاشية رقم 171؛ سيد علي اسماعيل: آيا صوفيا الكنيسة... المسجد...المتحف، **مجلة تراث**، نادي تراث الإمارات، ع131، أبوظبي، جويلية 2010، ص ص4-5.

Charles Diehl : Op. cit, p752 ; Jean Ebersolt : **Saint-Sophie de Constantinople**, Paris, 1910, p33.

عن وصف الرحالة والجغرافيين المسلمين لعمارة الكنيسة أنظر ص82 فما بعدها من هذا البحث. وعن خروج الإمبراطور إلى الكنيسة العظمى وما يرافق ذلك أنظر ص ص74-75 من هذا البحث.

الوزير)، ثم يأمره أن يدين بالحق ويُطاف به في الأسواق، ويناديه عامة الناس أن يدين بالحق كما أمره الملك وقلده أمورهم.[1]

ب/ اللغثيط Logothete (المستشار):

كان يسير شؤون الحكومة موظفون كبار، يعرف كل منهم باللغثيط Logothete، ومن بين هؤلاء يوجد اللغثيط صاحب ديوان الخراج، واللغثيط صاحب عرض الكتب، وكذا اللغثيط صاحب ديوان البريد.[2]

والواقع أنه كان هناك أربع موظفين كبار يطلق عليهم لقب لغثيط ويعد أهمهم اللغثيط المشرف على أمور النقل والبريد Logothete of Dromos، والذي أصبح يشرف فيما بعد على الشرطة والأمن الداخلي وكذا الشؤون الخارجية، وبعد القرن العاشر زادت أهميته فصار يعرف باللغثيط الكبير[3] The Grand Logothete، ويليه اللغثيط الذي يشرف على الشؤون المالية Logothete of public treasury والذي سمته المصادر الجغرافية العربية بصاحب ديوان الخراج،[4] ويليه اللغثيط الذي يشرف على دفع رواتب الجند[5] Logothete of Military Chest وبعده اللغثيط الذي يشرف على ضياع الإمبراطور وخيوله Logothete of Flocks

---

1- ابن رسته: المصدر السابق، ص118؛ البكري المصدر السابق، ج2، ص47.

2- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص99؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص138.

3- العريني: المرجع السابق، ص366؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص102.

Rosser John : Op.Cit, p248 ; Rodolphe Guilland: Les Logothètes : Etudes sur l'histoire administrative de l'Empire byzantine, **Revue des études byzantines**, Tome 29, France, 1971, p31 sqq; Charles Diehl: **The Government and Administration of the Byzantine Empire**, in the Cambridge Medieval History, vol 4, Cambridge University press, 1923, p731.

4- لمزيد من التفاصيل عن هذا المنصب أنظر

Rodolphe Guilland: Op.Cit, p11 sqq.

5- لتفاصيل أكثر أنظر

Ibid : p25 sqq.

ج/ البطارقة: Patricians

من بين الرتب التي أنشأها قسطنطين الأول رتبة البطريق Patrician والتي اقتصرت في وقته على عدد قليل من الأفراد، لكن أعداد البطارقة لم تلبث أن تزايدت، وأعطي لبعضهم الأسبقية على الآخرين،[1] وظل لقب البطريق أعلى لقب مباح حتى القرن العاشر الميلادي الذي ظهرت فيه ألقاب جديدة أعلى من البطريق.[2]

ذكر الجغرافيون المسلمون أن عدد البطارقة بالقسطنطينية اثنا عشر بطريقا،[3] في حين أشارت الأستاذة ليلى عبد الجواد إسماعيل إلى أن أهم هؤلاء البطارقة هو الذي يتولى منصب حاكم المدينة "الأبروخوس[4] Eprochos"، مستندة إلى عبارة ذكرها ابن خرداذبه في معرض حديثه عن مجلس شورى الملك، حيث قال: "**ولهذه المدينة البذروم أربع مائة رجل... وهم لمشورة الملك والقيام بأمره وأمر البطارقة، منهم من يتولى أمر القسطنطينية وحجابة الملك**"، وحسب فهم الدكتورة ليلى عبد الجواد فإن والي المدينة يكون من بين البطارقة، حيث اقتبست عن ابن خرداذبه العبارة التالية: "وأمر البطارقة، منهم من يتولى أمر القسطنطينية وحجابة الملك"، لكن يتهيأ لنا أن ابن خرداذبه قصد بكلامه أن من بين مهام مجلس الشورى الاهتمام بشؤون الملك والبطارقة "**ولهذه المدينة البذروم أربع مائة رجل... وهم لمشورة الملك والقيام بأمره وأمر البطارقة**"، ليضيف بعدها أن من بين أعضاء هذا المجلس من يتولى منصب والي المدينة.

1- رنسيمان: المرجع السابق، ص92.

2- مثل لقب الماجيستر Magister ولقب برويدروس Proedrus أنظر المرجع نفسه، ص ص92-93.

3- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص ص93-94؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص137. ويذكر ابن خرداذبه في موضع آخر أن ستة فقط من البطارقة يقيمون في القسطنطينية، أما البقية فموزعون على الأعمال. ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص ص96-97.

4- ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ص178.

ولم يُشر رنسيمان إلى أي علاقة للبطارقة بمنصب حاكم المدينة، بل ذكر أن من يتولى هذا المنصب يكون من هيئة القضاة،[1] وفي المقابل لم يُفَصِل ابن خرداذبه في تكوين مجلس الشورى، وإن كان به أعضاء من هيئة القضاء أم لا.

2/ قاضي القسطنطينية:

لم يذكر قاضي القسطنطينية سوى الرحالة ابن بطوطة، الذي تطرق إلى لقبه فذكر أنه يسمى عندهم ب "النجش كفالي".[2]

أما عن لباسه فقد ذكر ابن بطوطة أنه يرتدي زيا أسوداً شبيها بلباس الرهبان، وأنه يجلس على كرسي كبير مثبت فوق قبة من خشب، وإلى جواره يجلس عدد من الكتاب قدَّرهم ابن بطوطة بعشرة.[3]

3/ عساكر القسطنطينية وتنظيماتها:

قدَّر قدامة بن جعفر عدد الجيش البيزنطي المرابط بالقسطنطينية بأربعة وعشرين ألف فارس، وثمانية آلاف من المشاة.[4]

أما الرتب بالجيش فقد ذكرت المصادر الجغرافية رتبة الطرماخ Turmarch (آمر الكتيبة أو الناحية)، والذي يقود خمسة آلاف رجل، ويأتي بعده الطرنجار Drangarius

1- رنسيمان: المرجع السابق، ص100.

2- لم أصل لمعنى هذه الكلمة، ويرجح الدكتور عبد الهادي التازي أنها تعرضت للتحريف ويحتمل أن يكون المقصود هو كلمة النجشي، وهي كلمة مغولية وتركية تعني الكاتب أو الكاهن. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص258، الحاشية رقم 109.

3- المصدر نفسه، ص258. وقد ذكر رنسيمان أن القاضي يعد مسؤولا عن التظلمات والالتماسات المرفوعة للإمبراطور، وأن له ديوانا دون أن تكون له محكمة. رنسيمان: المرجع السابق، ص75.

4- قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص75.

(قائد السرية)، ويليه القومس Comes (قائد الفصيلة).[1]

وينقسم الفرسان المرابطون بالعاصمة البيزنطية (فرق الحرس الإمبراطوري) إلى أربعة أقسام رئيسية هي*: الاسخلارية Scholae (فرقة المدارس)، والديابة Excubitors ووحدة الجند أريثموس Arithmos (هي فرقة المراقبة Vigla) والهيكاناتي[2] Hicanati ويقود كل واحدة من هاته الفرق قائد برتبة دومستق Domestic (ضابط قصر)، عدا جند المراقبة Arithmos التي كانت تحت إمرة قائد سرية Drungarius،[3] أما عدد أفراد كل فرقة فيقدر بأربعة آلاف جندي.[4]

أما المشاة بالقسطنطينية فذكر قدامة أنهم ينقسمون إلى فرقتين، عدة كل واحدة أربعة آلاف رجل، لكن تسميتهما جاءت بشكل غير واضح.[5]

1- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص99؛ قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص75؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص164.

* اعتمدنا في كلامنا على تقسيمات الجيش على كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، لكن ينبغي التنبيه إلى أن الأخير استقى معلوماته من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ويكمن عدم توثيقنا من الكتاب الأخير إلى تعذر رجوعنا للطبعة التي اعتمدناها سابقا (طبعة دار إحياء التراث العربي)، إذ انتبهنا متأخرين إلى وجود هذه المعلومات في كتاب المسالك والممالك ففضلنا عدم الخلط بين طبعتين في البحث، والاكتفاء بما جاء في كتاب قدامة بن جعفر.

2- قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص75؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص ص 164-165؛ العريني: المرجع السابق، ص 367.

Charles Diehl : The Government…, p739.

وتجدر الإشارة إلى أن أسماء الفرق الثلاثة الأخيرة كتبت بشكل غير مفهوم في كتاب الخراج لقدامة حيث جاءت كما يلي: الحسف، أموس، سدراصن.

3- قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص75؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص ص 164-165.

Charles Diehl : The Government…, p739.

4- قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص75.

5- جاءت كتابتهما كالآتي: ابلمستا، موبره. قدامة بن جعفر: المصدر السابق، ص ص75-76.

رابعا: الحياة الاقتصادية بالمدينة:

1/ أسواق القسطنطينية:

نظرا لموقعها الاستراتيجي المميز، ومكانتها السياسية والحضارية المرموقة، فإن مدينة القسطنطينية كانت مركزا تجاريا هاما تتدفق نحوه السلع من كل ناحية، حتى أن المسعودي ذكر بأن السفن التجارية بخليج القسطنطينية لا تحصى كثرةً.[1]

أما المحلات التجارية بالأسواق، فإن أهل كل صنعة كانوا يتجمعون في جهة معينة، فنجد صاغة الذهب في جهة، وصناع الأثاث في أخرى، وباعة الأقمشة في ناحية وحدهم...وهكذا،[2] وذكر ابن بطوطة أن أغلب الباعة من النساء، وأن الأسواق تغلق أبوابها ليلا مخافة اللصوص.[3]

وخصص القسم الثاني من المدينة (الغَلَطَة Galata) لإقامة التجار الأوروبيين بها،[4] حيث

1- المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص174؛ الحميري: المصدر السابق، ص481. وقد أكد ذلك الرحالة بنيامين التطيلي حين ذكر عددا كبيرا من الأجناس التي يأتي تجارها إلى القسطنطينية. التطيلي: المصدر السابق، ص219.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص221.

3- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع4، يوليو 1989، ص110.

4- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251.

Charles Diehl: Byzantine…, p762.

ويبدوا أن المؤرخ حسين مؤنس قد أخطأ في فهم كلام ابن بطوطة، حيث أن الأخير ذكر بأن الغلطة Galata مخصصة "**لنصارى الإفرنج**"، وذكر حسين مؤنس أن المقصود بالإفرنج هنا هم "**نصارى أوروبا من غير الروم وهم البيزنطيون والصقالبة وهم الروس**". لكن ابن بطوطة شرح كلامه بنفسه حين قال: " **...وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل إفرانسة** ". أنظر مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 147، الحاشية رقم 2.

يختار هؤلاء التجار ممثلهم أمام الإمبراطور –سماه ابن بطوطة ب القمص–[1] ويؤدون ضريبة سنوية للإمبراطور، ولم يكن هناك اهتمام بنظافة الأسواق في هذا القسم من المدينة إذ تغلب عليها الأوساخ.[2]

وفي نهاية حديثنا عن الأسواق من المهم أن نشير إلى أن المؤرخة ليلى عبد الجواد قد نسبت – خطأً – وصف بعض الجغرافيين المسلمين للأسواق بمدينة روما إلى القسطنطينية.[3]

2/ نظام الضرائب:

كانت الضرائب من بين أهم الموارد المالية للدولة البيزنطية، وقد تطرق الجغرافيون المسلمون لبعض الضرائب المفروضة بمدينة القسطنطينية، فبالنسبة للأراضي كانت تفرض عليها ضرائب عينية وأخرى نقدية، إذ يؤخذ من كل مالك عُشر ما تنتجه أرضه من أجل تموين الجيش بالغذاء،[4] أما عن الضريبة النقدية فإنه كان يؤخذ عن كل مائتي مدى ثلاثة دنانير في السنة.[5]

وهناك ضريبة أخرى عرفت بضريبة الرؤوس، غير أنها كانت قاصرة على غير المسيحيين على ما يبدوا، إذ ذكر بعض الجغرافيين المسلمين أنه كان يؤخذ من كل رجل

1– قومص Comes تعني الكونت، ويبدوا أن ابن بطوطة أراد بها القنصل. أنظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص251، الحاشية رقم 98.

2– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص ص251، 254.

3– ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع4، يوليو 1989، ص ص109، 110.

4– أنظر ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص98؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص138.

5– المدى: ذكرت المصادر الجغرافية أنه يساوي ثلاثة مكاكيك. ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص98؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص138. وذكر ابن منظور أنه يساوي خمسة عشر مكوكا. ابن منظور: المصدر السابق، ج46، ص4162.

أما المكوك فيقدَّر بصاع ونصف (حوالي سبعة أرطال ونصف). المصدر نفسه، ج47، ص4249.

من اليهود والمجوس دينار كل سنة،[1] ولسنا ندري إن كان إغفال المصادر الإسلامية للمسلمين هنا، يعني إعفائهم من هذه الضريبة.

وإضافة إلى الضرائب السابقة، فُرضت ضريبة على المنازل المسكونة، قدَّرها ابن خرداذبه بستة دراهم في السنة.[2]

1- لم تذكر المصادر الإسلامية نوع العملة وإن كان الدينار ذهبيا أم لا؟ وقد أشار رنسيمان إلى هذه الضريبة دون أن يحدد قيمتها، أنظر ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص98؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص138؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص109؛ الشامي فاطمة قدورة: **الحضارة البيزنطية**، دار النهضة العربية، بيروت، 2002، ص66.

2- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص98. وقدَّر ابن الفقيه هذه الضريبة بدرهم واحد فقط. ابن الفقيه: المصدر السابق، ص138. وأشار رنسيمان إلى أن هذه الضريبة كانت تقدَّر في زمن الإمبراطور نقفور الأول ب 2.4 فرنكا ذهبيا. رنسيمان: المرجع السابق، ص109.

مما تقدم في هذا الفصل يمكن أن نخرج بالملاحظات التالية:

– لم تكن معلومات الجغرافيين المسلمين عن جغرافية القسطنطينية دقيقة كلها، إذ شابتها بعض الأخطاء والمبالغات.

– حصل لبعض الجغرافيين المسلمين خلط بين جغرافية مدينتي القسطنطينية وروما.

– أسهب الجغرافيون المسلمون في الحديث عن الإمبراطور قسطنطين وتأسيسه لمدينة القسطنطينية، وكانت معلوماتهم صحيحة إلى حد كبير.

– رغم أن كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين عن الجانب الإداري للقسطنطينية لم تكن شاملة لكل التنظيمات الإدارية بالمدينة، إلا أن معلوماتهم كانت مطابقة للواقع في عمومها.

– لم تركز المصادر الجغرافية كثيرا على الجانب الاقتصادي لمدينة القسطنطينية.

الفصل الثالث

جوانب حضارية بمدينة القسطنطينية
مـــن خـــلال كتابات الرحـالة
والجغرافيين المسلمين

يتناول الفصل عددا من الجوانب الحضارية التي ميزت مدينة القسطنطينية خلال الحقبة البيزنطية، حيث حاولت من خلاله الإجابة على التساؤلات الآتية:

ماهي أهم الجوانب الحضارية التي ركز الرحالة والجغرافيون المسلمون حديثهم عنها خلال وصفهم للقسطنطينية؟ وما مدى دقة وصفهم لها؟.

يتكلم الفصل بداية عن الحياة الدينية بالمدينة بدءاً بالحديث عن أهم كنائسها وأديرتها ورجال الدين بها، والمجامع المسكونية المسيحية، وعيد الصليب الذي يُحتفل به في شهر سبتمبر من كل سنة، لينتهي الحديث عن هذا الجانب بذكر نموذج لتسامح سكان المدينة الديني تجاه المسلمين.

ثم ينتقل للحديث عن الجانب العلمي بالمدينة وإشارات الجغرافيين المسلمين لأهم العلوم بها، وسبب عدم تعمقهم في وصف هذا الجانب.

ويتناول أيضا الحياة الاجتماعية بالقسطنطينية فيتطرق لبعض صفات أهل المدينة وعاداتهم، واعتقادهم في الخرافات، ودور ميدان السباق في حياتهم، إضافة إلى بعض التفاصيل عن الحياة اليومية داخل القصر الإمبراطوري.

كما يتطرق للجانب العمراني بالمدينة، فيتكلم عن أهم معالمها العمرانية، وأسوارها التي تحصنها، إضافة إلى المنارات العجيبة بها، وبراعة سكان العاصمة البيزنطية في فن التصوير والنحت، لينتهي الفصل بالكلام عن آثار التخريب الذي تعرضت له المدينة على أيدي صليبيي الحملة الرابعة.

أولا: الجانب الديني:

اصطبغت القسطنطينية منذ تأسيسها بصبغة دينية مسيحية خالصة، ولم يفت الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين تكلموا عن المدينة، التطرق إلى معالم الحياة الدينية بها، فتحدثوا عن أماكن التعبد بالمدينة –الكنائس والأديرة– وعن المجامع الكنسية المسكونية، وعيد الصليب الذي يعد من الأعياد الدينية المهمة بالنسبة للمسيحيين، كما وصفوا خروج الإمبراطور إلى كنيسة آيا صوفيا، لينتهي كلامهم عن هذا الجانب بذكر نموذج للتسامح الديني تجاه المسلمين.

1/ كنائس القسطنطينية وأديرتها:

اهتم الرحالة والجغرافيون المسلمون بوصف كنائس المدينة وأديرتها، ولم يخفوا إعجابهم بها، بدءاً بالكنيسة العظمى –آيا صوفيا– التي تعد أهم كنيسة بالمدينة، ومن عادة عامة الناس وخاصتهم زيارتها صباح كل يوم، أما البابا فيأتيها مرة في السنة على ما يذكر الرحالة ابن بطوطة.[1]

ومن الكنائس المهمة بالمدينة أيضا نجد كنيسة الرسل المقدسين[2] (Holly Apostles) التي شيدها قسطنطين الكبير، ثم أعادت ثيودورا[3] زوجة جستنيان بنائها على نحو يماثل

1– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص255.

2– أنظر لموقع الكنيسة وعدد من كنائس وأديرة القسطنطينية في الملحق رقم 01 ص97.

3– ابنة أحد القبارصة، ولدت بمدينة القسطنطينية سنة 500م، لكنها لم تلبث أن هاجرت نحو شمال إفريقيا أين أمضت عدة سنوات لتعود بعدها إلى العاصمة البيزنطية حيث رآها جستنيان فانبهر بجمالها وتزوجها عام 522م، ومنذ ذلك الحين وإلى غاية وفاتها سنة 548م، ظلت ثيودورا تمارس نفوذا كبيراً على زوجها وقد أثبتت كفاءة عالية في تصريف أمور الدولة. أنظر اسمت غنيم: **إمبراطورية جستنيان**، دار المجمع العلمي،=

كنيسة آيا صوفيا في الأبهة والجمال.[1]

أما الأديرة فذُكر أنها كانت تسمى بالمانستارات Monastery – على لفظ مارستانات والتي تعني المستشفيات – وهي بمثابة الزوايا لدى المسلمين،[2] ومن الملاحظات التي شدّت انتباه ابن بطوطة خلال حديثه عنها أن أكثر أباطرة الدولة البيزنطية إذا ما فاق الواحد منهم الستين من العمر تخلى عن الحكم ولبس المسوح،[3] وانقطع للعبادة في دير خاص يبنيه،[4] لكن في الواقع لم يكن توجه الأباطرة البيزنطيين إلى حياة الرهبنة أمراً إراديا في الغالب، وإنما أُجبر معظمهم على الترهب،[5] وقد ضرب المسعودي مثالا لذلك حين ذكر أن أولاد الإمبراطور رومانوس الأول لوكابينوس Romanos I Lekapenos (920–944م) أجبروا أباهم على التخلي عن العرش ونفوه إلى إحدى الجزر حيث ترهب هناك إلى أن توفي بعد أربع سنوات.[6]

ويبدوا أنه كان بالقسطنطينية عدد كبير جدا من المانستارات،[7] إلى درجة جعلت الإمبراطور نقفور الثاني فوكاس Nikephoros II Phokas (963–969م) يصدر

= جدة، 1977، ص17.

وللمزيد عن حياة ثيودورا وإنجازاتها أنظر

Charles Diehl : **Théodora Impératrice de Byzance, Paris**, 1900.

1– ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص184، الحاشية رقم 169.

Charles Diehl : **Théodora**…, p242-243.

2– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص255.

3– المِسحُ: هو كساء من الشعر، والجمع القليل أمساح، أما الكثير فمسوح. ابن منظور: المصدر السابق، ج48، ص4198.

4– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص256.

5– وسام فرج عبد العزيز: **بيزنطة قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، دار عين، مصر، 2003، ص184.

6– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ص147–148؛ دونالد نيكول: المرجع السابق، ص121.

7– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص255. وقد أكد هذه المعلومة روبرت كلاري –الذي زار المدينة ضمن الحملة الصليبية الرابعة (1202– 1204م)– حين قال " **والظن عندي أنه لا يوجد أحد على وجه=**

سنة 964م أمراً يقضي بمنع تشييد أديرة جديدة أو تخصيص أحباس للإنفاق عليها، وذلك بسبب الخسائر التي صارت تتكبدها الإمبراطورية جراء الانتشار الواسع للأديرة، ذلك أن القانون الكنسي يستوجب وجود ثلاثة رهبان على الأقل في كل دير، وبالتالي فقد كان من الطبيعي أن يصحب العدد الكبير للأديرة عدد أكبر من الرهبان، الأمر الذي حرم الإمبراطورية البيزنطية من قوة بشرية كبيرة تفيدها في عدة مجالات أهمها المجال العسكري، ضف إلى ذلك أن تقوى الناس كانت تدفعهم إلى إخراج مبالغ كبيرة من أموالهم لتشييد الأديرة ما كان يعني انتقالا تدريجيا لثروة الأهالي إلى أيدي الرهبان.[1]

ومن مانستارات المدينة يذكر ابن بطوطة مانستاران يقعان قرب الكنيسة العظمى، إذ يجدهما قاصدها على يمينه، أحدهما مخصص للرجال والآخر للنساء وداخل كل منهما كنيسة وبيوت للمتعبدين.[2]

ويقابلهما –أي على يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى– مانستاران آخران أحدهما يسكنه العميان أما الثاني فللشيوخ المقعدين ممن قارب الستين من العمر أو فاقها.[3]

وذكر ابن بطوطة أيضا مانستار الإمبراطور جرجيس،[4] الذي قال بأنه التقاه وحاوره**!!؟** وأكثر من ذلك قدم لنا ابن بطوطة وصفا للإمبراطور فذكر بأنه يلبس المسوح وعلى رأسه

= **البسيطة يستطيع أن يعدد أديرة المدينة لكثرتها...**" كلاري روبرت: **فتح القسطنطينية على يد الصليبيين**، تر حسن حبشي، مصر، د ت، ص132.

1- العريني: المرجع السابق، ص ص468-469.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص255.

3- المصدر نفسه، ص256.

4- تعني الكلمة جورج، وقد ذكر ابن بطوطة أنه والد إمبراطور القسطنطينية، لكن على الأرجح أنه كان يقصد الإمبراطور أندرونيكوس الثاني باليولوج Andronikos II Palaiologos (1228-1328م) جد أندرونيكوس الثالث Andronikos III (1328-1341م) – توفي ميخائيل التاسع والد أندرونيكوس الثالث سنة 1320م، فخلف الأخير جده بعد تنحيه عن الحكم واتجاهه لحياة الرهبنة، وقد زار ابن بطوطة العاصمة=

قلنسوة ويضع في عنقه سبحة، وله وجه حسن ولحية بيضاء طويلة يظهر عليه أثر التعبد.[1]

وأيضا هناك مانستار آخر سماه هارون بن يحي "دير ساطر"، يقع على حافة نهر ليكوس Lycus،[2] الذي يزود المدينة بالماء العذب، وداخل هذا المانستار توجد كنيسة، وهو مخصص لبنات الملوك اللاتي اخترن حياة الترهب.[3]

وكانت هذه الأديرة تمول من أموال الصدقات والأوقاف إذ غالبا ما تخصص أحباس للنفقة على المتعبدين بالمانستارات، بل إن بعض هذه المانستارات خصصت للاهتمام بفئات معينة من المجتمع كمانستاري الشيوخ والعميان الذين سبق ذكرهما.[4]

أما عن الرهبان الذين يقيمون بكنائس المدينة وأديرتها ويتعبدون فيها، فإننا نلحظ مبالغة كبيرة من الرحالة ابن بطوطة في تقدير أعدادهم، حيث قدَّر عدد من في الكنيسة

=البيزنطية في فترة حكم الحفيد– لكن السؤال الذي يُطرح هنا هو: هل التقى ابن بطوطة فعلا بالإمبراطور أندرونيكوس الثاني، أم أن خلطا ما قد وقع؟

إن المعطيات الواردة تشير إلى استحالة التقاء الرجلين ذلك أن اللقب الديري للإمبراطور أندرونيكوس الثاني هو أنتونيوس Antonios وليس جورج أو جرجيس. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن وفاة الإمبراطور أندرونيكوس الثاني (ت فيفري 1332م) سبقت زيارة ابن بطوطة للمدينة بأكثر من عامين (1334م).

أنظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص257، الحاشية رقم 107.

Françoise Micheau: Ibn Baṭṭūṭa à Constantinople la Grande, dans **Médiévales**, issus 12, 1987, p p56-57.

وعن شخصيتي أندرونيكوس الثاني والثالث أنظر دونالد نيكول: المرجع السابق، ص81 فما بعدها بعدة صفحات.

1– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص257.

2– وصف ابن رسته هذا النهر بقوله: "...**ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بُلغَر (بلاد البلغار) يجري إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث فثلث يذهب إلى دار الملك، وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين، والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الذي بين العذب والمالح**..." ابن رسته: المصدر السابق، ص119.

3– المصدر نفسه، ص120؛ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص256.

4– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص ص255–256.

العظمى من الرهبان والقسيسين بآلاف دون أن يحدد رقما معينا،[1] كما ذكر أنه يوجد في أحد الأديرة خمس مئة بكر من بنات الملوك،[2] وفي دير آخر أزيد من ذلك من أبناء الملوك.[3]

2/ المجامع الكنسية:

تعد المجامع المسكونية من أهم القضايا الدينية التي ذكرها الرحالة والجغرافيون المسلمون، سواء تلك التي عقدت بمدينة القسطنطينية أو التي عقدت في المدن الأخرى وأثرت على كنيسة القسطنطينية بقراراتها.

تطرق المسعودي بداية إلى الاختلاف في الاصطلاح على هذه الاجتماعات فذكر أن أهل مصر يسمونها السنهودسات – مفردها سنهودس – وأنها تدعى سنودسات –مفردها سنودس– وتنطق أيضا سناطس.[4]

1– المصدر نفسه، ص255.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن الخطيب وقع في خطأين عند ترجمته لابن بطوطة، حيث ذكر في الأول أن ابن بطوطة دخل الكنيسة العظمى، بينما الصواب أنه دخل حرمها فقط. أما الخطأ الثاني فذكر أن الرحالة المغربي قد حدّد عدد من في الكنيسة العظمى باثني عشر ألف أسقف، في حين ذكر ابن بطوطة في كتابه أنهم يصلون إلى آلاف دون تحديد رقم معين. اللهم إلا إذا كان ما قاله ابن بطوطة في الأندلس للشيخ أبي البركات – وهو الذي نقل عنه ابن الخطيب – يختلف عما ذكره في كتابه. أنظر ابن الخطيب: المصدر السابق، مج3، ص273.

2– تم فرض الرهبنة على بعض أميرات القصر لأجل منعهن من الزواج، ذلك أن الأميرة إذا تزوجت فإن زواجها يجب أن يكون من أحد أفراد الأسرة أو أحد أبناء الطبقة الأرستقراطية وهو الأمر الذي يكون فيه تهديد يقلق الجالس على العرش. وسام عبد العزيز فرج: المرجع السابق، ص207، الحاشية رقم 63.

3– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص256.

4– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص136؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240.

والواقع أن الكلمة الإنجليزية Synod هي اشتقاق من اللفظ اليوناني Sunodos وهي تدل على اجتماع يعقد في كنيسة ما.[1] ويُعَرف المجمع المسكوني على أنه مجمع لاقت قراراته قبول المسكونة كلها، ولا يشترط فيه حضور أو دعوة ممثلين عن كل أقطار العالم، وإنما يتطلب أن يكون الاعتراف به في كل أنحاء العالم على أنه مجمع مسكوني.[2]

وذكر المسعودي في مؤلفاته ستة مجامع مسكونية،[3] حيث أنه لم يعاصر المجمع السابع –وهو عدد المجامع المسكونية المعترف بها لدى الكنيسة الشرقية–[4] أما شمس الدين الدمشقي –الذي جاء بعد المسعودي– فقد حدَّد عدد المجامع المسكونية بسبعة.[5]

أ/ المجمع المسكوني الأول:

عُقد أول مجمع مسكوني بمدينة نيقية بعد حوالي عشرين سنة من مُلك قسطنطين على ما قدَّره المسعودي،[6] أما شمس الدين الدمشقي فذكر أن انعقاده كان بعد سبعة عشر سنة من حكم هذا الإمبراطور.[7] ويبدوا أن المسعودي كان أدق في تقديره إذ أن انعقاد المجمع كان بدءا من 20 ماي سنة 325م،[8] ودامت جلساته مدة سبعة وتسعين يوما.[9]

أما عن أسباب الاجتماع فإن أهمها كان النظر في الخلاف الذي أحدثته آراء الكاهن

1– ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص191.

Rosser John : Op. cit, p375.

2– حنانيا إلياس كساب: **مجموعة الشرع الكنسي**، ط2، مطبعة النور، بيروت، 1998، ص10.

3– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص239–240.

4– حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص10، الحاشية رقم1.

5– الدمشقي: المصدر السابق، ص342.

6– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص239؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص136.

7– الدمشقي: المصدر السابق، ص342.

8– رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص183.

9– أسد رستم: **الروم**، ج1، دار المكشوف، بيروت، 1955، ص57.

آريوس،*[1] واختلف المؤرخون في تعداد من حضر المجمع من الأساقفة،[2] غير أن العدد الشائع ثلاث مئة وثمانية عشر أسقفا.[3] وهو الرقم ذاته الذي جاء في كتب الجغرافيين المسلمين،[4] ومن بين الأساقفة الحاضرين ذكر المسعودي كلا من الاسكندر (ألكسندروس) بطريرك الاسكندرية، ومارقس (مكاريوس) أسقف أورشليم، ويوستانيوس أسقف أنطاكية.[5]

أما عن قرارات المجمع فإن أهمها كان حرمان آريوس وأتباعه ومنعهم من دخول الاسكندرية،[6] وتم الاتفاق أيضا على أن يكون فصح النصارى يوم الأحد،[7] وذكر المسعودي أن عدد القوانين التي وضعها المجمع يبلغ أربعين قانونا.[8]

---

* أحد رجال الدين بكنيسة الاسكندرية، تلخص رأيه في عدم المساواة بين الإله الأب والمسيح في الجوهر، ذلك أن الأخير مخلوق من العدم وأنه لم يكن أزليا ويسمى مجازا ابن الله. للمزيد عن آراء آريوس وما أحدثته من خلاف أنظر رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص163 فما بعدها بعدة صفحات؛ حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص ص41-42.

1- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240.

2- عن هذا الاختلاف أنظر رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص182؛ أسد رستم: المرجع السابق، ص57.

3- حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص42؛ رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص183.

4- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص ص239-240؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص122؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص342.

5- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص123؛ حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص41؛ رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص183.

6- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ص122-123؛ رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص ص194-195.

7- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص123. وأنظر أيضا حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص ص115-116.

8- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص123. وجاء في رسالة لاتينية أن المجمع قد وضع أربعين قانونا باللغة اليونانية ثم أضاف إليها عشرين قانونا باللغة اللاتينية، وجاء في مخطوطة عربية ثمانون قانونا باللغة العربية كلها تنسب إلى المجمع، لكن الكثير من الدراسات تذكر أن المجمع أقر عشرين قانونا فقط، أما باقي القوانين فنسبت دون أن يقرها حقيقة. أنظر حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص97 فما بعدها بعدة صفحات.

ب/ المجمع المسكوني الثاني: (المجمع القسطنطيني الأول)

عقد هذا المجمع بمدينة القسطنطينية، وقد حدَّد المسعودي تاريخ انعقاده بدقة، حيث ذكر أن بينه وبين المجمع الأول المنعقد بنيقية ست وخمسون سنة، أي أن انعقاده كان سنة 381م،[1] وذلك في زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير[2] Theodosius The Great (347-395م) وقد حضر في هذا المجمع مئة وخمسون أسقفا.[3]

أما عن أهم القرارات فيذكر المسعودي أنهم أدانوا مقدونس[4] وأشياعه الذين قالوا بمقالته.[5] ومن القوانين المهمة التي أقرها المجمع ولم يتطرق لها الجغرافيون المسلمون، القانون الثالث الذي ينص على أن يتقدم أسقف القسطنطينية في المكانة ليصير بعد أسقف روما مباشرة، لأن القسطنطينية هي روما الجديدة.[6]

ج/ المجمع المسكوني الثالث:

عقد هذا المجمع بمدينة أفسيس - أفسوس- سنة 431م،[7] وهو نفسه التاريخ الذي حدّده المسعودي حين قال بأن المجمع المسكوني الثالث جاء بعد الثاني بإحدى وخمسين

1- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص126؛ حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص381.

2- سماه المسعودي تدوس الكبير. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص126.

3- نفسه؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240؛ أسد رستم: **كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى**، ج1، المكتبة البولسية، لبنان، 1988، ص255؛ حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص241.

4- مقدونيوس من رجال الآريوسية بمدينة القسطنطينية، قال بأن الابن مشابه للأب في كل شيء، لكن لا يساويه في الجوهر وبأن الروح القدس مخلوق وخادم للابن كأحد الملائكة، وعُرف أتباعه بالمقدونيين. أنظر حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص ص258-259؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص195، الحاشية رقم 221.

5- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص126.

6- حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص266 فما بعدها بعدة صفحات؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص196.

7- حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص288.

سنة،[1] وقد دعا لعقده الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني[2] Theodosius II (408-450م) لحل الخلاف الذي وقع بين أسقف القسطنطينية نسطوريوس وأسقف الاسكندرية كيرلس، حيث يذكر المسعودي أن الإمبراطور تدوس الصغير -ثيودوسيوس الثاني- كتب إلى أسقف أنطاكية "يوحنا" يطلب منه التوجه وأساقفته إلى مدينة أفسس للنظر فيما وقع بين الأسقفين المذكورين.[3]

ويرجع سبب الخلاف إلى أن نسطور كان من المؤمنين بمبادئ الآريوسية، في حين كان كيرلس على المذهب الأثناسيوسي الذي ينادي باتحاد الطبيعتين في شخص المسيح.[4]

حضر لهذا المجمع مائتا أسقف،[5] تمكن كيرلس من كسب تأييد أهمهم ببذل الأموال لهم على ما يتهمه المسعودي بذلك،[6] حيث أصدر المجمع قراراً يقضي بالتبرأ من نسطور ونفيه إلى أنطاكية ثم إلى مصر.[7]

د/ المجمع المسكوني الرابع:

عقد بمدينة خلقدونية سنة 451م، وذلك في مستهل حكم الإمبراطور مارقيان[8] Marcian (450-457م)، للنظر في عدد من القضايا الدينية وعلى رأسها قضية

1- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص129.

2- تولى الحكم وعمره حوالي سبع سنوات، لذا ظل تحت وصاية أنثيموس Anthemius وزير أبيه، ثم تحت وصاية أخته بولخيريا Polcheria، دعمت الإمبراطورية في عهده مكانتها ضد الفرس لكنها خسرت شمال إفريقيا لصالح الوندال، كما تمكن الهون بقيادة أتيلا Atila من دخول روما سنة 410م. أنظر دونالد نيكول: المرجع السابق، ص98 فما بعدها.

3- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص128.

4- ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص197.

5- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص127؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص240؛ أسد رستم: الروم، ص124.

6- المسعودي: التنبيه والإشراف، ص128.

7- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص244؛ أسد رستم: الروم، ص125.

8 أسد رستم: الروم، ص125. وذكر المسعودي أن بين المجمعين الثالث والرابع إحدى وعشرون سنة. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص129.

بطريرك الإسكندرية ديوسقوريوس[1] Dioscorus، وقد حضر المجمع ثلاث مئة وستون أسقفا.[2]

خرج المجمع بقرار يدين ديوسقوريوس وأتباع مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح،[3] كما اتخذ قرار يقضي بأن يلي بطريرك القسطنطينية في المكانة بطريرك روما، وأن تصبح الكنيستان على قدم المساواة، وهذا ما أدى إلى التنافس بين الكنيستين فيما بعد.[4]

هـ/ المجمع المسكوني الخامس:

عقد هذا المجمع بمدينة القسطنطينية –المجمع الثاني بالمدينة– في عهد الإمبراطور جستنيان العظيم،[5] وقد أخطأ المسعودي في تحديد تاريخ انعقاده حيث ذكر أن بينه وبين المجمع الذي سبقه –يعني المجمع الرابع– مئة وست وثلاثون سنة،[6] في حين أن الفترة التي تفصل بينهما هي قرن وعامان حيث أن المجمع عقد سنة 553م،[7] وقد حضره مئة

1– ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص198؛ أسد رستم: الروم، ص ص126–127.
وذكر المسعودي في كتابه "مروج الذهب" البطريرك ديوسقوريوس باسم مسعرة اليعقوبي، أما في "التنبيه والإشراف" فذكر أنه كان بطريركا لمدينة الإسكندرية. المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص245؛ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص130.
تبنى ديوسقوريوس الرأي القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة، إذ اندثرت طبيعته البشرية باتحادها مع الطبيعة الإلهية. أنظر أسد رستم: الروم، ص ص125–126.
2– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص129؛ أسد رستم: الروم، ص127.
3– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص245؛ حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص393.
4– ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص199؛ حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص393.
5– سماه المسعودي يوسطانوس. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص130.
6– المصدر نفسه: ص131.
7– حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص446؛ أسد رستم: كنيسة أنطاكية، ص380؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص200.

وثلاث وستون أسقفا.[1]

أما عن القرارات التي أصدرها، فإن أهمها كان حرمان أريجانس[2] لقوله بتناسخ الأرواح في أجسام الحيوانات.[3]

و/ المجمع المسكوني السادس:

عقد بمدينة القسطنطينية –وهو ثالث مجمع يعقد بها – وذلك بين سنتي 680–681م،[4] في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع (668–685م).

اختلف المؤرخون في تعداد الأساقفة الحاضرين فقيل أنهم مئة وسبعون، وقيل ثلاث مئة وتسعة وثمانون،[5] أما المسعودي فذكر أنهم مئتان وتسع وثمانون أو أقل من ذلك.[6]

ومن قرارات المجمع حرمان كيروس بطريرك الاسكندرية لقوله بمذهب المشيئة الواحدة للمسيح.[7]

1– حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص446. أما المسعودي فذكر بأن عدد الأساقفة كان مئة وأربع وستون أسقفا. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص131.

2– أوريجانس: من رجال الدين المعروفين بالإسكندرية، يعد من أشهر مفسري الكتاب المقدس. أنظر ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص200، الحاشية رقم 243.

أما عن أهم آرائه التي أدت إلى إصدار الحكم بالحرمان عليه أنظر حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص275.

3– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص131.

4– حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص486؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص201.

وأخطأ المسعودي في تحديد تاريخ انعقاد المجمع حيث ذكر أن بينه وبين المجمع الذي سبقه ثمان وستون سنة. المسعودي: التنبيه والإشراف، ص136.

5– حنانيا إلياس كساب: المرجع السابق، ص486.

6– المسعودي: التنبيه والإشراف، ص136.

7– نفسه.

وقد توقف المسعودي عند المجمع السادس لأنه لم يعاصر المجمع الأخير في حين لم يفصّل في ذكره أحد من الجغرافيين الآخرين.

3/ عيد الصليب:

تحدث الجغرافيون المسلمون عن الصليب الأعظم الذي صُلب عليه المسيح –وفق المعتقد المسيحي– فذكروا أن القديسة هيلانة أم قسطنطين خرجت إلى بلاد الشام في السنة السابعة،[1] أو التاسعة لملك قسطنطين.[2]

وتذكر الرواية أنها بنت العديد من الكنائس في طريقها، وحين وصولها لفلسطين استطاعت استخراج صليب الصلبوت،[3] فأرسلت جزءاً منه إلى القسطنطينية حيث ثُبت على باب كنيسة آيا صوفيا.[4]

واتخذ لوجود الصليب عيد عُرف بعيد الصليب حيث يحتفل به على ما يذكر الجغرافيون المسلمون في الرابع عشر من أيلول –سبتمبر–.[5]

4/ خروج الإمبراطور للكنيسة العظمى:

بالغ الجغرافيون المسلمون في وصف خروج الإمبراطور إلى كنيسة آيا صوفيا وما يرافق ذلك من ترتيبات، حيث ذكروا أنه تفرش له الحصر وتزين الجدران ويخرج بين يديه

1– الدمشقي: المصدر السابق، ص341.

2– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص239.

3– عن قصة اكتشاف الصليب أنظر إسحاق عبيد: المرجع السابق، ص5 فما بعدها بعدة صفحات.
Rosser John: Op. cit, p402.

4– أنظر ص83 من هذا البحث.

5– المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص239؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص ص341–342؛ الحميري: المصدر السابق، ص483.

يديه عشرات الآلاف من الخدم المزينين بمختلف أشكال الألبسة والجواهر الثمينة.[1]

وحين يدخل الإمبراطور الكنيسة يؤتى بأسرى المسلمين فينادون ببقائه سنين كثيرة، ثم يؤتى بعدهم بثلاثة من الخيل المزينة ويعلقون عليها لجما، بحيث يعتقدون أنها متى أخذت اللجام بفمها كان لهم النصر على المسلمين.[2]

1- أنظر ابن رسته: المصدر السابق، ص ص117-118؛ الحميري: المصدر السابق، ص ص482-483.

2- ابن رسته: المصدر السابق، ص118.

ثانيا: الحياة العلمية:

لم يتطرق الجغرافيون والرحالة المسلمون إلى معالم الحياة العلمية بمدينة القسطنطينية،[1] واكتفوا ببعض الإشارات العامة من قبيل الحديث عن معرفة أهل المدينة بعلم الأعداد والمساحات والهندسة والتنجيم والموسيقى.[2]

إضافة إلى اهتمامهم بتحويل المعادن إلى ذهب وفضة أو ما عرف بعلم الكيمياء،[3] ولم يفت بعض الجغرافيين المسلمين الرد على أصحاب هذا العلم وتبيان زيف أمرهم.[4]

ولعل السؤال الذي يمكن طرحه هنا هو: ما سبب عزوف الرحالة والجغرافيين المسلمين عن وصف الجانب العلمي بمدينة القسطنطينية؟.

لعل الإجابة على هذا السؤال تكمن في معرفة طبيعة العلوم الرائجة لدى المسلمين في العصور الوسطى، حيث تأتي في مقدمتها العلوم الشرعية كالفقه والتفسير...، والعلوم اللغوية كالنحو والصرف وما إلى ذلك. ولم تكن مثل هذه العلوم موجودة عند أهل القسطنطينية، وبالتالي ربما كان الجغرافيون والرحالة المسلمون يرون في العلوم الموجودة بالقسطنطينية علوما غريبة عنهم لا حاجة لهم في تفصيل الكلام فيها.

1- عن الحياة العلمية بالقسطنطينية والإمبراطورية البيزنطية عموما أنظر نورمان بينز: المرجع السابق، ص192 فما بعدها بعدة صفحات؛ رنسيمان: المرجع السابق، ص269 فما بعدها بعدة صفحات.
Charles Diehl : Byzantine…, p763 sqq.

2- المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص242؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص343.

3- ابن الفقيه: المصدر السابق، ص135.

4- المصدر نفسه، ص136؛ الدمشقي: المصدر السابق، ص79 فما بعدها بعدة صفحات.

ثالثا: الحياة الاجتماعية:

تكلم الرحالة والجغرافيون المسلمون عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية بمدينة القسطنطينية فتطرقوا لبعض صفات سكانها وعاداتهم، واعتقادهم في الخرافات.

كما وصف الجغرافيون المسلمون ميدان السباق ودوره في حياة أهل المدينة، أما الرحالة ابن بطوطة فتطرق لبعض جوانب الحياة اليومية داخل القصر الإمبراطوري.

1/ بعض صفات أهل المدينة وعاداتهم:

وصف اسحاق بن الحسين سكان القسطنطينية بأنهم أهل بأس ونجدة، يخوضون حروبا عدة مع الأمم المجاورة لهم.[1] أما ابن بطوطة فلاحظ خلال تجواله بالمدينة أن الذكور كبيرهم وصغيرهم يضعون على رؤوسهم مظلات كبار، أما النساء فيضعن عمائم كبار.[2]

ومن العادات المعروفة بالعاصمة البيزنطية أن من يُلبسه الإمبراطور خلعته، يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والطبول كي ينتبه له الناس ويعرفوه ولا يتعرضوا له بأذى.[3]

2/ اعتقادهم في الخرافات:

ذكر الجغرافيون المسلمون عددا من التصرفات التي يقوم بها سكان القسطنطينية ويؤمنون بها ويمكن إدراجها في خانة الخرافات والأساطير التي لا وجود لها في الواقع،

1- اسحاق بن الحسين: المصدر السابق، ص117.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص257.

3- المصدر نفسه، ص250.

ومن أمثلة ذلك أن الخيول في المدينة إذا ما نزل عنها صاحبها تركها واقفة وحدها فلا تبرح مكانها ولا تصهل ولا تحدث جلبة، والسبب في ذلك على ما يذكر أهل القسطنطينية أن هناك ثلاثة تماثيل في هيئة فرس وضعها أحد الحكماء طلسما للدواب.[1]

وكذلك ذكر هارون بن يحي أن بالمدينة تماثيل لأربع حيات أذنابها بأفواهها وضعت طلسما للحيات كي لا تضر أحدا، حتى أن الصبي يقصدها ويلعب بها دون أن تضره.[2]

ومن الغرائب التي ذكرها الجغرافيون المسلمون عن سكان القسطنطينية أنه كان لهم بيت فيه صور للرجال والنساء والخيل والبغال...وغير ذلك، فإذا اشتكى أحد من وجع في أحد أعضائه دخل ذلك البيت واقترب من مثل صورته فيمسح بيده على العضو المراد علاجه – الموجود بالصورة – ثم يمسح العضو الذي يشكو منه فيزول عنه الألم في الحال.[3]

وفي المدخل الغربي للمدينة كان يوجد تمثالان لرجلين يشير الأول بيديه كأنه يقول هاته، ويشير الثاني كأنه يقول اصبر، وإذا جيء للمدينة بأسرى جدد يؤخذون إلى مكان وجودهما، ثم يذهب الرسول لإبلاغ الإمبراطور بأمرهم فإذا عاد وهم وقوف دون التمثالين أُخذوا للسجن أما إن جاوزوه أُعدموا جميعا.[4]

1- ابن رسته: المصدر السابق، ص119؛ الحميري: المصدر السابق، ص483؛ القزويني: المصدر السابق، ص606.

2- ابن رسته: المصدر السابق، ص119؛ الحميري: المصدر السابق، ص483.

3- القزويني: المصدر السابق، ص606. وللمزيد عن الخرافات المرتبطة بالتداوي من الأمراض. أنظر نورمان بينز: المرجع السابق، ص17 فما بعدها بعدة صفحات.

4- ابن رسته: المصدر السابق، ص119.

كذلك كان أهل المدينة يتبركون بالقبور، كحال قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري إذ كانوا يعتنون به وإذا أصابهم قحط كشفوا سقفه ليغاثوا.[1]

3/ ميدان السباق: (الهبدروم Hippodrome):

يعتبر ميدان السباق من أهم المراكز التي تقوم عليها الحياة اليومية بالقسطنطينية، خاصة بالنسبة للطبقة العامة من السكان، وقد عبر أحد المؤرخين عن هذه الأهمية بالقول " **إن كانت آيا صوفيا لله، وكان القصر للإمبراطور، فإن الهبدروم كان ملكا للشعب**".[2]

وقد تكلم الجغرافيون والرحالة المسلمون عن تصميم الميدان وعمارته،[3] وعن بعض الألعاب التي كانت تجري به،[4] والتي من بينها لعبة سباق الخيل حيث ينقسم المتسابقون والجمهور إلى فريقين الأول الملك وأنصاره –سماه المقدسي وينطوا– والثاني للوزير ومن معه –سماه المقدسي براسيانا –[5] ويرسلون الخيل نحو عمود يقع وسط الميدان، وكان

1– الحميري: المصدر السابق، ص400؛ النويري: المصدر السابق، ج20، تح عماد علي حمزة، ص168؛ القزويني: المصدر السابق، ص606.

2– نورمان بينز: المرجع السابق، ص26.

Paul Magdalino: **Studies on the History and Topography of Byzantine Constantinople**, U S A, 2007, p42.

3– عن عمارة ميدان السباق أنظر ص ص85–86 من هذا البحث.

4– عن الألعاب التي كانت تقام بالميدان أنظر

Venance Grumel**:** Le commencement et la fin de l'année des jeux à l'Hippodrome de Constantinople, dans **Échos d'Orient,** tome 35, N°184, 1936, p428 sqq.

5– ربما كان يقصد بها حزبي الخضر والزرق الذين كانا يتنافسان داخل الميدان وخارجه، ففي البداية تشكلت أربع فرق نسبة إلى سائقي عربات السباق، وهي الحمر والزرق، والخضر والبيض. ثم انضم الحمر للزرق، والبيض للخضر وصار كل حزب يجمع الاشتراكات للعناية بالجياد والسائقين، وبمرور الوقت امتد تنافس الحزبين إلى الجانب الديني والسياسي. أنظر محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ص47–48.
Charles William: Op. cit, p p22-23.

الحاضرون يتفاءلون في لعبهم هذا حيث يعتقدون أنه متى انتصر خيل الفريق الأول انتصروا في حروبهم.[1]

وكان هناك سباق آخر للخيل، حيث تخرج عربتان من بابين متجاورين غربي الميدان يجر كل واحدة منهما أربعة جياد، وتدور العربتان حول عدد من التماثيل ثلاث دورات، فإذا انتهى السباق رمى الإمبراطور للفائز مقداراً من الذهب من مقصورته.[2*]

وإلى جانب سباق الخيل كانت تجري ألعاب أخرى كالعروض التي يقدمها المهرجون والبهلوانات، كأن يمشي أحدهم على حبل مشدود ويغير ملابسه وهو واقف عليه، أو كأن يضع آخر عمودا على جبهته يتسلقه طفل ويجلس في قمته،[3] كما كانت تقام بالميدان مصارعة بين مختلف الحيوانات الضارية كالسباع والدببة والنمور.[4]

4/ جانب من الحياة اليومية بالقصر الإمبراطوري:

تبدأ الحركة بالقصر الإمبراطوري على الساعة السابعة من صباح كل يوم بفتح باب المدخل الرئيسي للقصر، ثم يتجه الإمبراطور نحو الكنيسة الملحقة بقصره حيث يؤدي صلواته ليستعد بعدها لاستقبال من يريد المثول أمامه.[5]

1- المقدسي: المصدر السابق، ص ص153-154.

* كان للملك مقصورة متصلة بالقصر، تشرف على الميدان من مكان عال، ومنها يشاهد وحاشيته الألعاب التي تجري بالميدان. أنظر كلاري روبرت: المصدر السابق، ص130؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع4، ص124؛ نورمان بينز: المرجع السابق، ص30.

2- ابن رسته: المصدر السابق، ص114.

3- نورمان بينز: المرجع السابق، ص28.

4- بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص221.

5- ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع4، ص ص116-117.

وقد ذكر كل من ابن بطوطة وابن الفقيه المراحل التي يتوجب على من يريد المثول أمام الإمبراطور أن يجتازها بدءاً بالانتظار عند الباب الخارجي إلى غاية وصول الإذن ثم الخضوع للتفتيش ليرافقه بعدها عدد من الحراس إلى غاية دخول القاعة التي يتواجد بها الإمبراطور،[1] دون أن ننسى بعض الخدع التي يواجهها الداخل إلى القصر كأن يجد سيوفا متحركة تقطع عليه الطريق فإذا اقترب منها سكنت.[2] وتهدف هذه الخدع أساسا إلى بث الشعور بالرهبة في نفس الداخل على الإمبراطور خاصة إذا كان في مهمة دبلوماسية.

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص ص249-250.

2- ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ص130-131.

رابعا: العمارة والفنون:

تكلم الرحالة والجغرافيون المسلمون عن عمارة القسطنطينية فتطرقوا لأهم معالمها العمرانية، والأسوار التي تحيط بالمدينة وأبوابها، ومناراتها المميزة، وتكلموا كذلك عن قبر الإمبراطور قسطنطين كأحد النماذج العمرانية بالمدينة، وتطرقوا أيضا لبراعة أهل المدينة في فن التصوير، لينتهي الحديث عن هذا الجانب بوصف آثار التخريب والدمار الذي أصاب المدينة جراء الحملة الصليبية الرابعة.

1/ أهم المعالم العمرانية بالمدينة:

وصف الجغرافيون والرحالة المسلمون عددا من المعالم العمرانية التي تجسد الإبداع البيزنطي، فتطرقوا لكنيسة آيا صوفيا والقصر الإمبراطوري إضافة إلى وصف عمارة الهبدروم.

أ/ كنيسة آيا صوفيا:

ذكر ابن بطوطة أن الكنيسة تقع وسط القسم الأول بالمدينة والمعروف بإصطنبول،[1] لكن وقع له خلط ما عند حديثه عن باني الكنيسة، حيث ذكر أنها من بناء آصف بن برخياء،[2]

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص250.

أنظر لموقع الكنيسة بالملحق رقم01 ص97.

2- يرى ابن كثير أنه هو من أحضر عرش ملكة سبأ إلى النبي سليمان -عليه السلام- بطرفة عين، وإن لم يذكره القرآن باسمه فإنه ذكره بإحدى صفاته وهي أن عنده علم الكتاب. قال الله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...﴾ سورة النمل- الأية 40. وقيل هو من علماء بني إسرائيل، ويحفظ اسم الله الأعظم. أنظر ابن كثير: المصدر السابق، ج2، ص335.

ابن خالة النبي سليمان –عليه السلام–.[1]

والغريب هنا أن ابن بطوطة –الذي يبدوا أنه ذهب ضحية لسوء فهم المترجمين– لم يلحظ الفارق الزمني الكبير بين فترة النبي سليمان عليه السلام (القرن العاشر ق.م) وبين بناء المدينة، أو على الأقل ظهور الديانة المسيحية.

وكنيسة آيا صوفيا مستطيلة الشكل[2] يحيط بها سور فيه ثلاثة عشر باب،[3] وفي أحد الأبواب الغربية أقيمت مجموعة من البوابات الصغيرة على عدد ساعات الليل والنهار، فكلما مرت ساعة يُغلق باب ويفتح الذي يليه.[4]

ومن المؤسف أننا لا نجد من الجغرافيين والرحالة المسلمين من يصف لنا الكنيسة من الداخل،[5] وعبر ابن بطوطة عن السبب الذي حال دون دخوله الكنيسة ووصفها من الداخل حيث ذكر أن خدامها يجلسون عند بابها الرئيسي ولا يدعون أحداً يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم، الذي جعلوه في جعبة من ذهب وعرَّضوا عليها بأخرى مثلها لتصير صليبا وعلقوه في الباب.[6] أما حرم الكنيسة فلا يمنع أحد من دخوله، وقد ذكر ابن بطوطة أنه مفروش بالرخام وبه بعض أشجار العنب والياسمين.[7]

1– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص254.

2– أبو الفداء: المصدر السابق، ص213.

أنظر لمخطط الكنيسة عند

Jean Ebersolt: **Saint-Sophie de Constantinople**, Paris, 1910, p40.

3– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص254.

4– ابن رسته: المصدر السابق، ص119؛ القزويني: المصدر السابق، ص605.

5– أنظر لصورة الكنيسة من الداخل عند

Warren Treadgold: **A History of the Byzantine State and Society**, Stanford University Press, California, 1997, p212.

6– ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص255.

7– المصدر نفسه، ص254.

وحصل للحميري خلط حين قال بأن الإمبراطور قسطنطين العظيم وضع أعلى كنيسة آيا صوفيا آلة مطلسمة وهي عبارة عن زرزور نحاسي، فإذا جاء وقت الزيتون حشرت إليها زرازير المدينة حيث يأتيها كل واحد من هذه الزرازير بثلاث زيتونات، اثنتان في مخالبه والثالثة في منقاره،[1] لكن الجغرافيين المتقدمين نسبوا هذه الآلة إلى كنيسة القديس بطرس بروما وليس لكنيسة آيا صوفيا.[2]

وفي ختام الحديث عن عمارة الكنيسة نتأسف لعدم تمكننا من الوصول لكتاب "الأثار والعجائب والأصنام" للرحالة الهروي،[3] حيث أن مؤلفه ذكر أنه أورد فيه تفاصيل هامة عن كنيسة آيا صوفيا بوصفه لهيكلها وارتفاعها وأبوابها وطولها وعرضها وأعمدتها...[4]

ب/ القصر الإمبراطوري:

يقع القصر الإمبراطوري في المنطقة الجنوبية الشرقية للمدينة، على مقربة من الميدان وبحر مرمرة،[5] بناه الإمبراطور قسطنطين العظيم، وقام جستنيان بإدخال تعديلات عليه.[6]

يحيط بالقصر سور مرتفع دورته فرسخ (حوالي 5 كلم)،[7] وذكر بعض الجغرافيين المسلمين

1- الحميري: المصدر السابق، ص282.

2- ابن رسته: المصدر السابق، ص121؛ ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص103؛ الحموي: معجم البلدان، مج3، ص103؛ إسحاق بن الحسين: المصدر السابق، ص114.

3- تعرض هذا الكتاب للضياع ولم يصل إلينا.

4- أنظر الهروي: المصدر السابق، ص53.

5- المقدسي: المصدر السابق، ص153.

Paul Magdalino: Op. cit, p43.

وأنظر أيضا الملحق رقم 01 ص97.

6- Jonathan Harris: Op. cit, p63.

7- ابن رسته: المصدر السابق، ص114؛ البكري: المصدر السابق، ج2، ص46؛ القزويني: المصدر السابق، ص604.

Jonathan Harris: Op. cit, p63.

أنظر لصورة القصر الإمبراطوري عند Hanss Pohlsander: Op. cit, p68.

أن به ثلاثة أبواب مهمة،[1] أولها باب البيدرون،[2] أما الثاني فسماه ابن رسته باب البحر والثالث باب المنكنا!.[3]

وعلى يمنة الداخل إلى القصر الإمبراطوري يوجد بيت المال،[4] أما على يسرته فتوجد كنيسة الملك وبها عشرة أبواب، والموضع الذي يقف فيه الإمبراطور للصلاة يقدّر بأربعة أذرع في مثلها (أي حوالي مترين في مثلهما) وهو مزين بالدر والياقوت.[5]

قرب هذه الكنيسة توجد مجموعة من التماثيل لإنسان وعدد من الحيوانات وقربها صهريج متصل بكل تمثال منها، فإذا كانت هناك مناسبة ما مُلء ذلك الصهريج شرابا فينفذ إلى تلك التماثيل ويخرج من أفواهها.[6]

ج/ الهبدروم:

يقع الميدان اليوم بالساحة المعروفة ب "آت ميدان"[7] Atmeidan وهو عبارة عن ساحة فسيحة يبلغ طولها مقدار رمية سهم ونصف رمية، أما عرضها فمقدار رمية واحدة،[8]

1- ذكر القزويني أن للقصر ثلاث مئة باب. القزويني: المصدر السابق، ص604.

2- لعل هذه التسمية كانت نسبة إلى ميدان السباق حيث سماه عدد من الجغرافيين المسلمين البيدرون أو البذرون. ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع4، ص131.

3- ابن رسته: المصدر السابق، ص114-115.

4- المصدر نفسه، ص118.

Jonathan Harris: Op. cit, p78.

5- ابن رسته: المصدر السابق، ص115؛ البكري: المصدر السابق، ص46؛ القزويني: المصدر السابق، ص604.

6- ابن رسته: المصدر السابق، ص115-116؛ القزويني: المصدر السابق، ص604-605.

7- أنظر لصورة الساحة عند

Charles William: Op. cit, p22; Hermann Barthe: **Constantinople**, Les Villes d'art célèbres, Paris, 1913, p95.

8- كلاري روبرت: المصدر السابق، ص130.

وتحف جنباته تماثيل لرجال ونساء وأنواع عديدة من الحيوانات.[1]

وأشار المقدسي أنه توجد بوسط الميدان دكة،[2] رجحت الأستاذة ليلى عبد الجواد أنه يقصد بها ما عرف باسم الحاجز (أو سبينا Spina)[3] ويتشكل هذا الحاجز من ثلاثة نصب أثرية أولها مسلة تم إحضارها من مصر تزينها النقوش الهيروغليفية، أما النصب الثاني فكان عبارة عن ثعبان ذو ثلاثة رؤوس مصنوع من النحاس، والثالث عمود برونزي مربع الشكل مصنوع بطريقة خارجة عن المألوف في تلك الفترة.[4]

2/ أسوار المدينة وأبوابها:

تكلم الجغرافيون والرحالة المسلمون عن تحصينات المدينة واستحكاماتها فذكروا أنها محصنة بسور واحد لا غير،[5] إذ تركز معظم كلامهم عن سور ثيودوسيوس، ولم يتطرقوا لسور قسطنطين سوى بالإشارة،[6] ولعل السبب في ذلك يكمن في أن الجغرافيين والرحالة المسلمين عاصروا مدينة القسطنطينية وقد توسع عمرانها إلى ما وراء سور قسطنطين وبالتالي لم تعد لهذا السور تلك الأهمية التي تدعوهم إلى وصفه وتفصيل الكلام عنه.

1- الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص802؛ الحميري: المصدر السابق، ص482.

2- المقدسي: المصدر السابق، ص153.

3- ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع4، ص122.

4- نفسه.

Charles William: Op. cit, p p23-24; Hermann Barth: Op. cit, p96.

5- المقدسي: المصدر السابق، ص153.

6- ذكر بعض الجغرافيين المسلمين أن قسطنطين حين أسس مدينته الجديدة بنى عليها سورا. أنظر ابن خرداذبه المصدر السابق، ص93؛ إسحاق بن الحسين: المصدر السابق، ص116، الحموي: معجم البلدان، ج4، ص347.

أما السور الذي وصفه الجغرافيون المسلمون فقد بني في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (408-450م)، وهو يمتد من القرن الذهبي شمالا إلى بحر مرمرة جنوبا ويبعد عن سور قسطنطين بحوالي ميلين غربا، وفي سنة 439م تم إنشاء أسوار بحرية تتصل بهذا السور، لكن زلزالا ضرب المدينة أحدث تصدعات بالسور فأعيد ترميمه سنة 447م.[1]

ويبلغ ارتفاع السور حسب تقدير الجغرافيين المسلمين واحداً وعشرين ذراعا (حوالي 11.5 متر)،[2] وهو تقريبا نفس الارتفاع الحقيقي للسور والذي يبلغ اثني عشر مترا.[3]

ويحيط بهذا السور سور آخر خارجي يمتد ليحيط بالمدينة في جهاتها البحرية، وقد اختلف الجغرافيون المسلمون في تقدير ارتفاعه، حيث ذكر بعضهم أن ارتفاعه من ناحية البر يقدّر بعشرة أذرع (خمسة أمتار) ومن ناحية البحر يقدّر بخمسة أذرع (مترين ونصف)،[4] أما الإدريسي فذكر أن ارتفاعه يبلغ عشرة أذرع سواء من ناحية البر أو البحر،[5] في حين ذكر الحموي أن ارتفاعه في جهة البحر يبلغ خمسة أذرع،[6] ومن جهته قدَّر القطيعي ارتفاع الجهة البحرية لهذا السور بخمسة عشر ذراعا (سبعة أمتار ونصف)[7]

1- رنسيمان: المرجع السابق، ص31-32.

Alexander Van Milligen: **Byzantin Constantinople**, London, 1899, p45.

2- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ المهلبي: المصدر السابق، ص62؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص801؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص347؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص213؛ القطيعي: المصدر السابق، ج3، ص1092؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ص171.

3- Alexander Van Milligen: Op. cit, p51.

4- ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ص171.

5- الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص801.

6- الحموي: معجم البلدان، ج4، ص347.

7- القطيعي: المصدر السابق، ج3، ص1092.

ويتراوح الطول الحقيقي لهذا السور بين ستة أقدام (1.82 متر) وعشرة أقدام (3.04 متر) وذلك بحسب ارتفاع الأرض.[1]

وذكر الحميري أنه يفصل بين سور ثيودوسيوس والسور الصغير نهر يسمى بنهر قسطنطيانوس[2] وقد نقل معلومته هذه من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، لكن هذا الأخير وعددا من الجغرافيين المسلمين نسبوا هذا الوصف لمدينة روما وليس للقسطنطينية.[3]

أما الجغرافي الزهري فقد بالغ في وصفه لأسوار القسطنطينية حيث قال بأن لها سبعة أسوار تدور ببعضها على شكل حلزوني يجعل من يسير بينها يتحير في مدخلها من مخرجها،[4] أما القزويني فقد رسم صورة لهذا الوصف.[5]

وبالنسبة لأبواب المدينة ذكر الجغرافيون المسلمون أنها كثيرة سواء في الواجهة البحرية أو البرية للمدينة، منها أبواب مخصصة للأغراض الحربية وأخرى مدنية،[6] وأشهر باب عرفت به القسطنطينية هو باب الذهب الذي شيّده الإمبراطور ثيودوسيوس وذلك بعد انتصاره على أحد أعدائه –مكسيموس Maximus– ونجاحه في إجهاض ثورته، وذلك سنة 388م، ويقع هذا الباب في جنوب سور ثيودوسيوس،[7] في حين ذكر

1– Alexander Van Milligen: Op. cit, p53; Granville Baker : **The Walls of Constantinople**, New York, 2005, p187.

2– الحميري: المصدر السابق، ص482.

3– الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص751؛ ابن رسته: المصدر السابق، ص123؛ ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص101؛ ابن الفقيه: المصدر السابق، ص140؛ الحموي: معجم البلدان، ج3، ص101.

4– الزهري: المصدر السابق، ص ص73–74.

5– أنظر الملحق رقم03 ص99.

6– ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص801؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص347.

7– ليلى عبد الجواد إسماعيل: المرجع السابق، ع3، ص172، الحاشية رقم 114.

Granville Baiker: Op. cit, p129.

الحميري – خطأً– أنه يقع شمال المدينة.[1]

وهذا الباب مصنوع من الحديد ومموه بالذهب،[2] ذكر ابن رسته أن عليه صورة لخمسة فيلة يمسك زمامها رجل.[3]

3/ منائر القسطنطينية:

تكلم الهروي عن ثلاث منائر بالمدينة، حيث توجد الأولى بميدان السباق،[4] وهي موثقة بالرصاص والحديد، إذا هبت الريح تميلها شرقا وغربا،[5] وبالميدان أيضا توجد المنارة الثانية وهي مصنوعة من النحاس كلها قطعة واحدة وليس لها باب.[6]

أما المنارة الثالثة فهي مصنوعة من الرخام الأبيض مزينة بصور عجيبة، إذا صعد الإنسان لقمتها يقع نظره على كامل المدينة.[7]

وأنظر لموقع الباب بالملحق رقم 01 ص97.

1– الحميري: المصدر السابق، ص482.

2– ابن خرداذبه: المصدر السابق، ص93؛ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص801؛ القطيعي: المصدر السابق، ج3، ص1092.

3– ابن رسته: المصدر السابق، ص114.

4– يقصد بها المسلة التي أحضرت من مصر والتي سبق وأن تطرقنا إليها.

5– الهروي: المصدر السابق، ص48؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص348؛ القزويني: المصدر السابق، ص605؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ص172.

6– الهروي: المصدر السابق، ص48؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص348؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ص172.

قصد الهروي بهذا الوصف العمود البرونزي المربع الذي سبق وأن أشرنا إليه خلال كلامنا عن الهبدروم.

7– الهروي: المصدر السابق، ص48؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ص172.

4/ قبر قسطنطين:

تكلم عدد من الجغرافيين المسلمين عن قبر الإمبراطور قسطنطين العظيم فذكروا أنه يوجد بقرب الكنيسة العظمى عمود طويل على رأسه مائدة مربعة الشكل، مصنوعة من الرخام وبها قبر قسطنطين، وفوق القبر تمثال لفرس يركبه شخص يحمل بإحدى يديه كرة، في حين يمد يده الثانية.[1]

5/ براعة أهل المدينة في فن التصوير:

من أهم ما تميزت به القسطنطينية عن غيرها من المدن نجد براعة أهلها في فن التصوير والنحت، إذ امتلأت شوارع المدينة ومبانيها بالصور والزخرفات والتماثيل، وقد وصف ابن الفقيه سكان هذه المدينة بأنهم أحذق الأمم بالتصاوير، حتى أن المصور منهم يأتي بأدق تفاصيل الإنسان في صورته، ثم يتلاعب بها كيفما شاء، فيجعل الشخص شابا، ثم كهلا أو شيخا، وإن شاء ضاحكا أو باكيا...[2]

وقد أورد بعض الجغرافيون المسلمون قصة طريفة للملك الفارسي شابور الثاني (309- 379م) تبرز مدى إتقان أهل القسطنطينية لفن التصوير، حيث دخل هذا الملك إلى بلاد الروم متنكرا وصادف وليمة للإمبراطور البيزنطي حضرها عامة الناس وخاصتهم فرأى أن يكون من بين الحاضرين، وكان البيزنطيون قدا قاموا من قبل برسم

1- ابن رسته: المصدر السابق، ص ص118-119؛ الهروي: المصدر السابق، ص48؛ الحموي: معجم البلدان، ج4، ص348؛ أبو الفداء: المصدر السابق، ص213؛ ابن الوردي: المصدر السابق، ص172.
وأنظر لصورة هذا العمود عند

Warren Treadgold: Op. cit, p41.

2- ابن الفقيه: المصدر السابق، ص129.

صورته على آنية الشرب، فتنبه بعض الحاضرين للشبه الموجود الملك المتنكر وصورته الموجودة في الكؤوس ما عرضه للأسر.[1]

6/ آثار الدمار والتخريب بالمدينة:

أشار العمري إلى قيام الصليبيين باحتلال مدينة القسطنطينية ضمن الحملة الصليبية الرابعة،[2] أما أبو الفداء فقد زار المدينة بعد هذه الحملة وذكر أن بها خرابا كثيراً نتج عن هذه الحملة وأن أكثر عمارتها صارت في الجزء الشرقي الشمالي.[3]

1- الحميري: المصدر السابق، ص174؛ النويري: المصدر السابق، ج15، تح يوسف الطويل- علي محمد هاشم، ص137-138.

2- العمري شهاب الدين: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج27، تح مهدي النجم، دار الكتب العلمية، دت، ص125.

3- أبو الفداء: المصدر السابق، ص213.

من خلال ما سبق في هذا الفصل يتبين لنا ما يلي:

– كان لسكان القسطنطينية ميل واضح تجاه الأمور الدينية وهو ما تجلى في كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين تعمقوا في وصف الحياة الدينية بالمدينة، لكنهم بالغوا في وصفهم لبعض النقاط كأعداد الرهبان مثلا.

– انفرد المسعودي عن غيره من الجغرافيين المسلمين بوصف المجامع المسكونية.

– لم يهتم الرحالة ولا الجغرافيون المسلمون بوصف الحياة العلمية بالمدينة، واكتفوا ببضع إشارات عابرة.

– عبر الرحالة والجغرافيون المسلمون عن انبهارهم بالمعالم العمرانية للقسطنطينية بوصف دقيق بديع لها.

– واصل بعض الجغرافيين المتأخرين –خاصة منهم الحميري – خلطهم بين روما والقسطنطينية أثناء وصفهم لهذه الأخيرة.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة يجدر بنا الوقوف عند أهم النتائج والملاحظات التي تم التوصل لها، والتي يمكن أن نجملها فيما يلي:

– كان للمسلمين اتصال دائم بالعاصمة البيزنطية، وقد تنوعت أسباب هذا الاتصال فمنها الحربية، والدبلوماسية، والاقتصادية، وحتى السياحية...

– لم يتناول جغرافيو المدرسة البلخية القسطنطينية كثيرا في كتاباتهم، فباستثناء بعض المعلومات المهمة التي أوردها المقدسي وابن حوقل، لم تحظ مدينة القسطنطينية باهتمام كبير لدى جغرافيي هذه المدرسة.

والسبب في ذلك أن من بين السمات التي تميز هذه المدرسة عدم اهتمام جغرافييها بوصف الأقاليم التي لا تتبع الدولة الإسلامية.

– كان للجغرافي ابن رسته فضل كبير في حفظ رواية هارون بن يحي عن القسطنطينية، ولولاه لفقدنا جزءاً مهما من وصف المسلمين لهذه المدينة.

– تكشف لنا هذه الدراسة أن اهتمام المسلمين بوصف مدينة القسطنطينية لم يكن وليد الفتح الإسلامي لها، وإنما سبق ذلك بقرون.

– رغم أن فترة العصور الوسطى تميزت بالصراع والتعصب الديني خاصة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أن وصف الرحالة والجغرافيين المسلمين لعاصمة بيزنطة كان بعيدا عن هذا التعصب، بل انهم لم يخفوا إعجابهم وانبهارهم بكثير من معالم القسطنطينية.

– تركزت أوصاف الرحالة والجغرافيين المسلمين لمدينة القسطنطينية على جوانب معينة دون أخرى، فكان للجوانب السياسية والدينية والعمرانية حظ وافر من الوصف، وفي المقابل لم يتعد وصف الحياة العلمية بالمدينة بضع إشارات عابرة.

– يمكن تقسيم الرحالة والجغرافيين المسلمين في وصفهم للقسطنطينية إلى صنفين:

الأول قدّم معلومات أصيلة عن المدينة، وإن شابتها بعض الأخطاء إلا أنها كانت في عموما صحيحة وقريبة من الواقع، ذلك أنها ناتجة إما عن المعاينة والمشاهدة كحال المسعودي والإدريسي وابن بطوطة...، أو نقل مباشر عمن عاين وشاهد مثلما كان الأمر مع ابن رسته مثلا.

أما الصنف الثاني فهم الجغرافيون الذين نقلوا وصفهم للمدينة عن سابقيهم، لكن معلومات بعضهم شابها الخلط بين مدينتي روما والقسطنطينية مثلما كان الحال مع الجغرافيين الحميري والقلقشندي.

– إن هذه الدراسة تكشف لنا عن مدى اهتمام الجغرافيين المسلمين بوصف مدن وحضارة الأوروبيين في العصور الوسطى، ما يستدعي دراسة أكثر عمقا تشمل الوصف الإسلامي لأهم المدن الأوروبية في العصر الوسيط.

– إن الأوصاف التي يقدمها الرحالة والجغرافيون للمدن بشكل عام تكشف عن جوانب مهمة لا يتناولها عادة المؤرخون، وبالتالي يمكن القول بأنه لا غنى للمؤرخ عن كتابات الرحالة والجغرافيين إذا ما أراد دراسة تاريخ مدينة ما.

الملاحق

الملحق رقم 01:

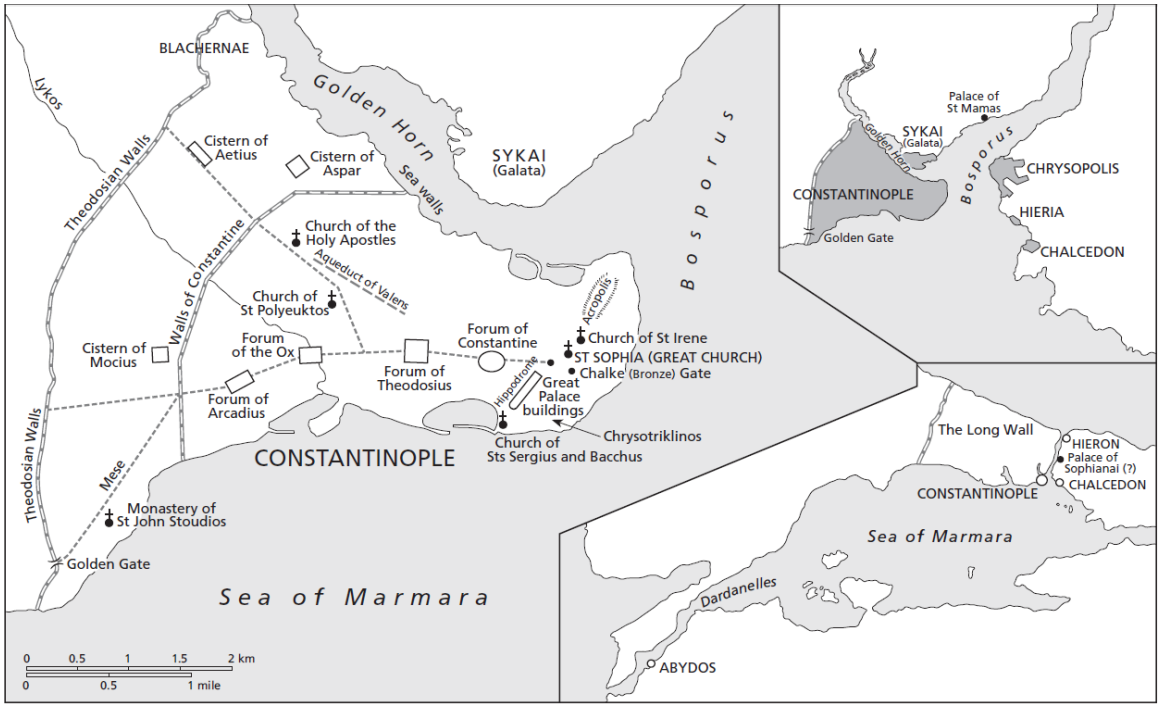

خريطة مدينة القسطنطينية

Jonathan Shepard: **The Cambridge History of the Byzantine Empire**, Cambridge University Press, United States of America, 2008, p113.

الملحق رقم 02:

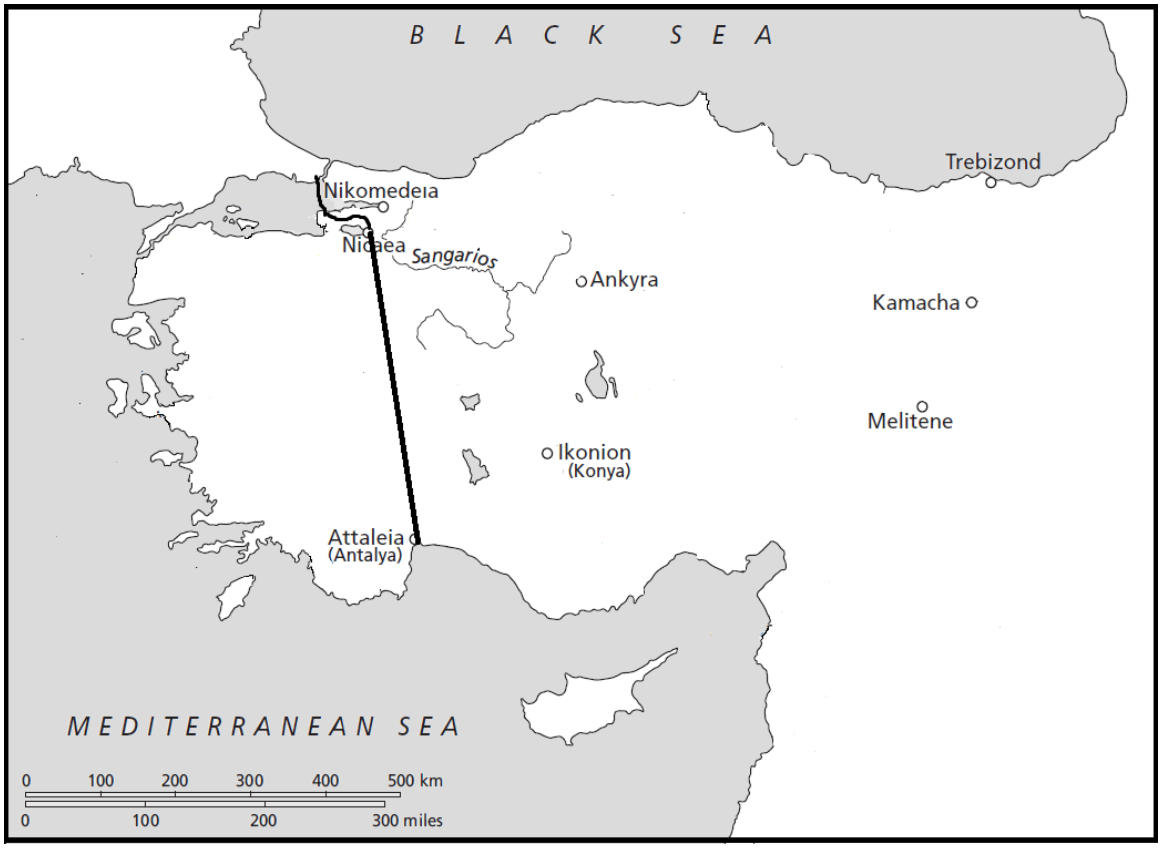

المسلك الرابط بين أنطاليا والقسطنطينية كما وصفه الرحالة هارون بن يحي

Jonathan Shepard: Op. cit, p700.

الملحق رقم 03:

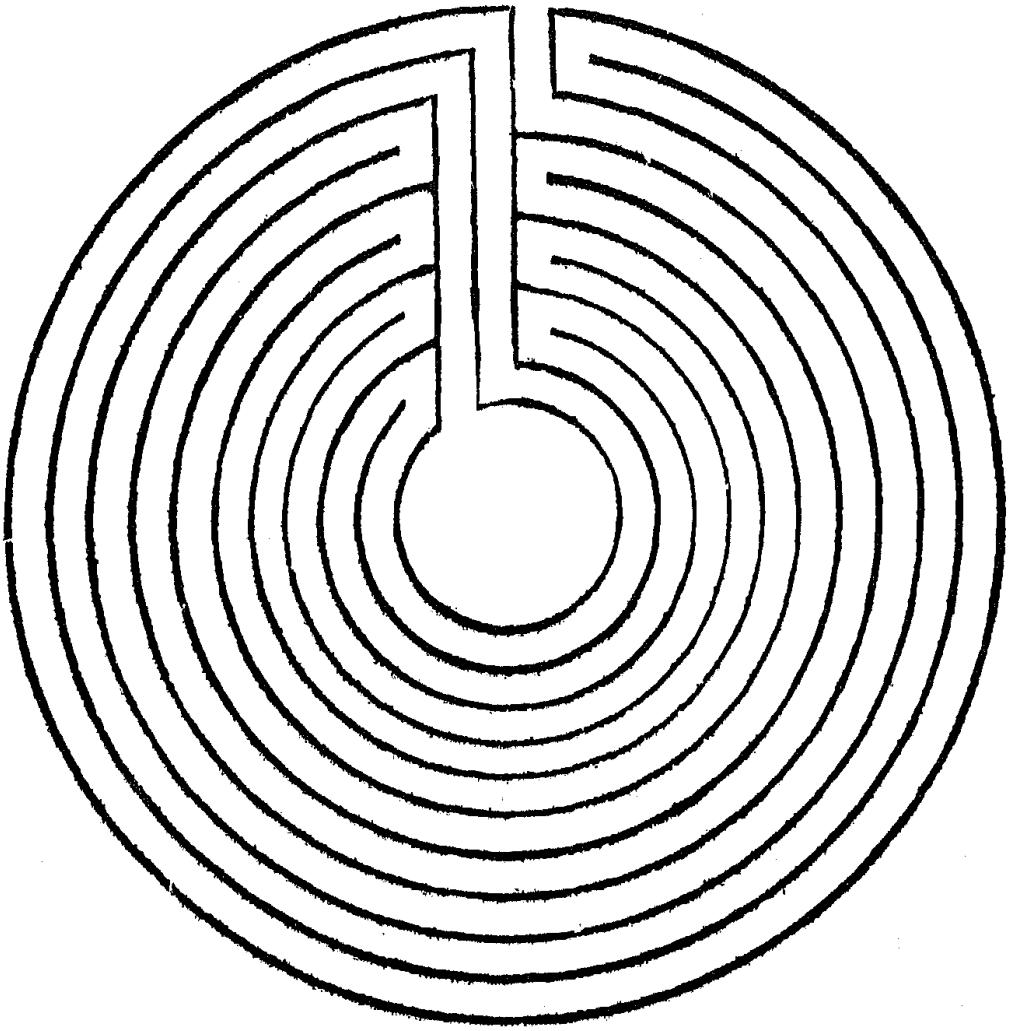

المتاهة المعقدة إحدى رموز الوثنية في أوروبا

أوردها القزويني على أساس أنها خريطة لمدينة القسطنطينية

القزويني: المصدر السابق، ص604.

المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم.**

1/ المصادر العربية والمعربة:

أ/ المصادر العربية:

* ابن الآبار محمد بن عبد الله: التكملة لكتاب الصلة، تح عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995.

– الحلة السيراء، تح حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985.

* ابن الأثير عز الدين: الكامل في التاريخ، تح أبو الفداء عبد الله القاضي وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

* إسحاق بن الحسين: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، تح فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، 1988.

* الإصطخري أبو إسحاق: المسالك والممالك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004.

* ابن بطوطة أبو عبد الله محمد: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.

* البكري أبو عبيد: المسالك والممالك، تح جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

* ابن جبير محمد: رحلة ابن جبير، تح لجنة تحقيق التراث، دار الهلال، بيروت، د ت.

* ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات، القاهرة، 2008.

– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، صححه سالم الكرنكوي، دار الجيل، بيروت، 1993.

* أبو الحسين أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د م، 1979.

* الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980.

* ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.

* ابن خرداذبه أبو القاسم عبيد الله: المسالك والممالك، تح محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988.

* الخطيب البغدادي: الرحلة في طلب الحديث، تح نور الدين عتر، سلسلة روائع تراثنا الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975.

* ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974.

* ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة، تح مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2005.

* ابن خلكان شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ت.

* الدمشقي شمس الدين: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1998.

* الذهبي شمس الدين محمد: العبر في خبر من غبر، ج2، تح أبو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية، لبنان، 1985.

– سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.

* ابن رسته أحمد أبو علي: الأعلاق النفيسة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

* الزهري أبو عبد الله محمد: كتاب الجغرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د ت.

* الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

* الصفدي صلاح الدين: الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط – تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.

* صفي الدين القطيعي البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، 1992.

* الطبري محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر، د ت.

* ابن العماد شهاب الدين: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح عبد القادر الأرناؤوط– محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، 1991.

* العمري شهاب الدين: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح كامل سلمان الجبوري– مهدي النجم، دار الكتب العلمية، 2010.

* أبو الفداء عماد الدين إسماعيل: تقويم البلدان، صححه رينود وماك كوكين ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1830.

* ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988.

* القزويني زكريا: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د ت.

* القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى، دار الكتب الخديوية، مصر، 1915.

* الكتبي محمد بن شاكر: فوات الوفيات، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1974.

* ابن كثير عماد الدين: البداية والنهاية، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، 1998.

* المسعودي أبو الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح كمال مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005.

– التنبيه والإشراف، تح إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د ت.

– أخبار الزمان، دار الأندلس، بيروت، 1996.

* المقدسي محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح شاكر العيبي، دار السويدي، 2003.

* المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.

* المنذري زكي الدين: التكملة لوفيات النقلة، تح بشار عواد معروف، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988.

* ابن منظور: لسان العرب، تح عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت.

* المهلبي الحسن بن أحمد: المسالك والممالك، تح تيسير خلف، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق، 2006.

* النديم أبو الفرج محمد: الفهرست، تح أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث، لندن، 2009.

* النويري شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

* الهروي أبو الحسن علي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

* ابن الوردي سراج الدين: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح أنور محمود الزناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.

* ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

– معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.

* اليعقوبي أحمد بن يعقوب: كتاب البلدان، السلسلة الجغرافية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988.

ب/ المصادر المعربة:

* التطيلي بنيامين: رحلة بنيامين التطيلي، تر عزرا حداد، دراسة وتقديم عبد الرحمان عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002.

* قسطنطين السابع بورفيروجنتيوس: إدارة الإمبراطورية البيزنطية، تر محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

* كلاري روبرت: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، تر حسن حبشي، مصر، د ت.

2/ المصادر الأجنبية:

* Eusebius Pamphilus: The Life of the Blessed Emperor Constantine, in The Greek Ecclesiastical History, Book 1, London, 1845.

3/ المراجع العربية والمعربة:

أ/ المراجع العربية:

* أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، د ت.

* أحمد زكي بك: قاموس الجغرافية القديمة، المطبعة الأميرية، مصر، 1899.

* أسد رستم: الروم، ج1، دار المكشوف، بيروت، 1955.

– كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، المكتبة البولسية، لبنان، 1988.

* اسمت غنيم: إمبراطورية جستنيان، دار المجمع العلمي، جدة، 1977.

* البستاني بطرس: محيط المحيط، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1987.

* حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس، بيروت، 1983.

* حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1989.

* حميدة عبد الرحمان: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط2، دار الفكر، دمشق، 1995.

* الخربوطلي علي حسني: المسعودي، دار المعارف، مصر، 1968.

* خصباك شاكر: الجغرافيا عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986.

* رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة، ط3، دار قباء للطباعة، مصر، 1999.

* زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، كلمات للترجمة والنشر، مصر، 2013.

* ابن سودة عبد السلام: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر، بيروت، 1997.

* السويكت سليمان: منهج المسعودي في كتابة التاريخ، السعودية، 1986.

* السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، مصر، 1982.

* الشامي فاطمة قدورة: الحضارة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، 2002.

* عبد الفتاح محمد وهيبة: جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995.

* علي جمعة محمد: المكاييل والموازين الشرعية، ط2، دار القدس، القاهرة، 2001،

* عيسى علي إبراهيم: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000.

* الفندي جمال: الجغرافيا عند المسلمين، كتب دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

* قنديل فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002.

* محمد عبد الغني حسن: الشريف الإدريسي أشهر جغرافيي العرب والإسلام، سلسلة أعلام العرب والإسلام، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1971.

* محمد محمود محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ط3، دار العلوم، الرياض، 1999.

* محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000.

* مصطفى أحمد أحمد– حسام الدين إبراهيم عثمان: الموسوعة الجغرافية، ج2، دار العلوم، القاهرة، 2004.

* مؤنس حسين: ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة، 1980.

– تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، مكتبة مدبولي، مصر، 1986.

* النساج سيد حامد: مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، د ت.

* نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1987.

* وسام فرج عبد العزيز: بيزنطة قراءة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، دار عين، مصر، 2003.

ب/ المراجع المعربة:

* جيبون إدوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر محمد علي أبو درة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997.

* دونالد نيكول: معجم التراجم البيزنطية، تر حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003.

* رنسيمان ستيفن: الحضارة البيزنطية، تر عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

* فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر كايل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن، 1970.

* كراتشوفسكي أغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية للجامعة العربية، القاهرة، 1963.

* نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تر حسين مؤنس – محمود يوسف زايد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950.

4/ المراجع الأجنبية:

* Alexander Van Milligen: Byzantine Constantinople, London, 1899.

* Charles William Chadwick: The Byzantine Empire, London, 1902.

* George Ostrogorsky : History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.

* Granville Baker: The Walls of Constantinople, New York, 2005.

* Hans Pohlsander: The Emperor Constantine, Second Edition, Routledge press, London, 2004.

* Hermann Barthe: Constantinople, Les Villes d'art célèbres, Paris, 1913.

* Jean Ebersolt: Saint-Sophie de Constantinople, Paris, 1910.

* Johnathan Harris: Constantinople Capital of Byzantium, London, 2007.

* Jonathan Shepard: The Cambridge History of the Byzantine Empire, Cambridge University Press, U S A, 2008.

* Paul Magdalino: Studies on the History and Topography of Byzantine Constantinople, U S A, 2007.

* Warren Treadgold: A History of the Byzantine State and Society, Stanford University Press, California, 1997.

* William Holden Hutton: The Story of Constantinople, London, 1921.

5/ الموسوعات والقواميس:

* الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة، السعودية، 1999.

* John Rosser: Historical Dictionary of Byzantium, Scarecrow press, U S A, 2001.

6/ الرسائل الجامعية:

* يسعد أحمد: ثقافة الهند من خلال رحلة أبي الريحان البيروني (ت 440/ 1048م)، رسالة ماجستير، تحت إشراف د. أحمد شريفي، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو القاسم سعد الله، 2010.

7/ المقالات والبحوث:

* إسحاق عبيد: قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع، المجلة التاريخية المصرية، مج 17، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مصر، 1970.

* خليف مصطفى غرايبة: الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين، دورية كان التاريخية، ع3، مارس2009.

* سيد علي إسماعيل: آيا صوفيا الكنيسة... المسجد...المتحف، مجلة تراث، نادي تراث الإمارات، ع131، أبوظبي، جويلية 2010.

* شاكر الفحام: التعريف والنقد اصطنبول، مجلة مجمع اللغة العربية، مج64، ج1، مجمع اللغة العربية، دمشق، جانفي 1989.

* شفيق عبد الرحمان علي: مدارس الجغرافيا عند المسلمين، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، مج3، السعودية، 1984.

* عبد العال عبد المنعم الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، مج3، السعودية، 1984.

* غلاب محمد السيد: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، مج3، السعودية، 1984.

* فاضل إسماعيل خليل: الرحلة في طلب الحديث، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع57، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، أفريل 2007.

* فلاح شاكر أسود: دور العرب المسلمين في رسم الخرائط، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، مج3، السعودية، 1984.

* قويسم محمد: مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط دورية كان التاريخية، ع13، سبتمبر 2011.

* ليلى عبد الجواد إسماعيل: القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين، مجلة المؤرخ المصري، ع3، جامعة القاهرة، مصر، جانفي 1989، ع4، يوليو 1989.

* محمد رشيد الفيل: أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، مجلة رسائل جغرافية، ع9، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، سبتمبر 1979.

* Charles Diehl: The Government and Administration of the Byzantine Empire, in the Cambridge Medieval History, vol 4, Cambridge University press, 1923.

- Byzantine Civilization, in the Cambridge Medieval History, vol4, Cambridge University press, 1923.

* Demtrius John Georgacas: The Names of Constantinople, in Transaction and Proceedings of the Amrican Philological Association, vol78, The Johns Hapkins University press, U S A, 1947.

* Françoise Micheau: Ibn Baṭṭūṭa à Constantinople la Grande, dans Médiévales, issus 12, 1987.

* Rodolphe Guilland: Les Logothètes: Etudes sur l'histoire administrative de l'Empire byzantine, Revue des études byzantines, Tome 29, France, 1971.

* Venance Grumel: Le commencement et la fin de l'année des jeux à l'Hippodrome de Constantinople, dans Échos d'Orient, tome 35, N°184, 1936.

فـهـرس
الأعـلام والأمـاكن

فهرس الأعلام

أحمد رمضان: 11.

الإدريسي: 22–23، 26–27، 29، 33، 87–88.

أريوس (رجل دين): 69.

إسحاق بن الحسين: 44، 77.

الإصطخري: 22، 24–25.

آصف بن برخياء: 82.

ألكسندروس (بطريرك): 69.

أوريجانس (رجل دين): 73.

أبو أيوب الأنصاري: 48–49، 79.

بطليموس: 18–20.

ابن بطوطة: 4، 6–8، 15–17، 29، 46، 55، 58، 63–67، 77، 81–84.

البكري: 25–26، 43، 50.

البيروني: 14–15.

التطيلي بنيامين: 34.

ثيودورا (زوجة الإمبراطور جستنيان): 63.

ثيودوسيوس الثاني: 71، 86، 88.

ثيودوسيوس الكبير: 70.

ابن جبير: 4، 8، 12–13، 17.

ابن جزي: 16–17.

جستنيان: 63، 72، 84.

جوليان المرتد: 49.

ابن حوقل: 25، 41.

الحموي: 27–28، 87.

الحميري: 84، 88.

الخربوطلي: 10.

ابن خرداذبه: 36، 54–55، 59.

ابن خلدون: 5.

الخوارزمي: 21.

ديوسقوريوس (بطريرك): 72.

ابن رسته: 33، 40–41، 47، 85، 89.

رنسيمان: 55.

رومانوس لوكابينوس: 64.

الزهري الأندلسي: 18، 88.

أبو زيد البلخي: 20.

أبو سعيد بن عبد المؤمن: 13.

سليمان التاجر: 6.

سليمان –عليه السلام–: 83.

سيف الدولة الحمداني: 48.

شابور الثاني: 90.

شمس الدين الدمشقي: 68.

أبو العباس الصفري: 48.

عبد الفتاح وهيبة: 10–11.

عبد الله بن مسعود: 9.

ابن العماد: 27.

عمر بن الخطاب: 19.

العمري: 91.

أبو عنان الفاسي: 16.

أبو الفداء: 35–37، 91.

ابن فضلان: 6.

ابن الفقيه: 41، 81، 90.

فؤاد قنديل: 10.

قدامة بن جعفر: 55.

القزويني: 88.

قسطنطين الرابع: 73.

قسطنطين السابع: 49.

قسطنطين العظيم: 31–32، 42–44، 49، 54، 60، 63، 68، 74، 82، 84، 89.

القطيعي: 87.

القلقشندي: 33، 50.

كراتشوفسكي: 10، 13، 20، 24.

كونستانز الثاني: 50–51.

كيرلس (أسقف): 71.

كيروس (بطريرك): 74.

ليلى عبد الجواد إسماعيل: 44، 54، 58.

ليو الثالث: 48.

محمد صلى الله عليه وسلم: 50.

المسعودي: 9–11، 37–38، 43–44، 46، 50–51، 57، 64، 68–74، 92.

مسلمة بن عبد الملك: 49.

معاوية بن أبي سفيان: 39.

المقدسي: 79، 86.

مقدونيوس (رجل دين): 70.

المقري: 12.

مكاريوس (أسقف): 69.

مكسيموس: 88.

النديم: 9.

نسطوريوس (أسقف): 71.

نقفور الثاني: 65.

نقولا زيادة: 10.

النويري: 39.

هارون بن يحي: 40، 66، 78.

هرقل: 50.

الهروي: 14، 49، 84، 89.

هيلاني (القديسة): 42، 74.

يزيد بن معاوية: 48.

اليعقوبي: 7، 24.

يوستانيوس (أسقف): 69.

فهرس الأماكن

أبيدوس: 39.

إسبانيا: 26.

استنبول (اصطنبول): أنظر القسطنطينية.

الإسكندرية: 13، 69–72، 74.

آسيا الصغرى: 27.

إصطخر: 24.

أطرابزندة: 40.

أفسوس: 70–71.

أكسفورد: 11.

ألميرية: 26.

الأندلس: 12، 25–26.

أنطاكية: 69، 71.

أنطاليا: 40.

أنقرة: 41.

أورشليم: أنظر بيت المقدس.

أوروبا: 27.

بابل: 10.

البحر الأسود (بحر مانطس): 35–37، 41.

بحر الظلمات: 7.

بحر إيجة: 35–36.

بحر فرعون (البحر الأحمر): 8.

بحر قزوين: 26.

بحر مرمرة: 32، 36، 38، 84، 87.

بغداد: 9–10، 25.

بلاد المغرب: 9–10، 27.

بلنسية: 12.

البوسفور (مضيق): 36–38.

بيت المقدس: 13، 69.

بيرون: 15.

تركيا: 11.

تمنطيط: 17.

تونس: 16.

الجزيرة العربية: 3.

الحجاز: 4.

حلب: 14، 28.

حماه: 28.

حوض الفولغا: 6.

خلقدونية: 38، 72.

خوارزم: 14–15.

الدردنيل: 35.

روما: 33–34، 41، 43–45، 58، 60، 70، 72، 84، 88، 92.

سبتة: 27.

سنقرة: 40.

شاطبة: 12

شاليطش: 25.

الشام: 74.

شمال إفريقيا: 26.

صقلية: 27، 51.

طرسوس: 47.

العراق: 10، 26.

عسقلان: 40.

غرناطة: 13.

الغَلَطَة: 35، 57.

فروق: 46.

فلسطين: 74.

قرطبة: 26–27.

القرن الذهبي: 34، 35، 38، 87.

القسطنطينية: 3، 30–49، 54–58، 60–64، 67، 70–74، 76–79، 82، 86، 88–92.

كمخ: 41.

المدينة المنورة: 50.

مسناة: 37.

مصر: 12، 26–27، 67، 71، 86.

المغرب الأقصى: 27.

مكة: 13.

ملطية: 41.

الموصل: 14.

نهر ليكوس: 66.

نيقية: 40، 68، 70.

هراة: 14.

الهند: 15.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: فن الرحلة وعلم الجغرافية عند المسلميــن	29-1
أولا: فن الرحلة عند المسلمين	8-3
1- معنى الرحلة	3
2- أسباب القيام بالرحلات	3
أ/ الحج	4
ب/ طلب العلم	5
جـ/ التجارة	6
د/ تكليف السلاطين	6
هـ/ حب الاستطلاع ومعرفة أحوال الناس	6
3- بعض مخاطر الرحلات	7
أ/ قساوة الطبيعة	8
ب/ خطر قطاع الطرق	8
ثانيا: نماذج لأشهر الرحالة المسلمين	17-9
1- المسعودي	9
2- ابن جبير	12
3- الهروي	13
4- البيروني	14
5- ابن بطوطة	15
ثالثا: علم الجغرافيا عند المسلمين وتطوره	23-18
1- الجغرافيا عند المسلمين وأسباب اهتمامهم بها	18
2- تأثر الجغرافيين العرب بالمدرسة اليونانية	19
3- المدرسة البلخية في الجغرافيا	20

4- الخرائط عند المسلمين	21
رابعا: تراجم لأهم الجغرافيين المسلمين	28-24
1- اليعقوبي	24
2- الإصطخري	24
3- البكري	25
4- الإدريسي	26
5- الحموي	27
الفصل الثاني: جغرافية القسطنطينية وجوانب من نظم الدولة البيزنطية بها	60-30
أولا: جغرافية القسطنطينية	41-32
1- الموقع الجغرافي للمدينة	32
2- طول المدينة وأقسامها	33
3- خليج القسطنطينية	35
أ/ طول الخليج	35
ب/ عرض الخليج	37
ج/ ميناء القسطنطينية	38
4- بعض المسالك المؤدية للمدينة	40
ثانيا: الجانب السياسي	51-42
1- الإمبراطور قسطنطين وتأسيسه القسطنطينية	42
2- بعض تسميات المدينة	45
3- الإمبراطور ونظام الحكم	47
4- سجون القسطنطينية	47
5- نماذج لمحاولات المسلمين فتح القسطنطينية	48
6- ذكر بعض الأباطرة	49
ثالثا: الجانب الإداري	56-52
1- كبار موظفي الدولة	52

أ/ الوزير	52
ب/ اللغثيط	53
ج/ البطارقة	54
2- قاضي القسطنطينية	55
3- عساكر القسطنطينية وتنظيماتها	55
رابعا: الحياة الاقتصادية بالمدينة	59-57
1- أسواق القسطنطينية	57
2- نظام الضرائب	58
الفصل الثالث: جوانب حضارية بمدينة القسطنطينية من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين	92-61
أولا: الجانب الديني	75-63
1- كنائس القسطنطينية وأديرتها	63
2- المجامع الكنسية	67
أ/ المجمع المسكوني الأول	68
ب/ المجمع المسكوني الثاني	70
ج/ المجمع المسكوني الثالث	70
د/ المجمع المسكوني الرابع	71
هـ/ المجمع المسكوني الخامس	72
و/ المجمع المسكوني السادس	73
3- عيد الصليب	74
4- خروج الإمبراطور للكنيسة العظمى	74
ثانيا: الحياة العلمية	76
ثالثا: الحياة الاجتماعية	81-77
1- بعض صفات أهل المدينة وعاداتهم	77
2- اعتقادهم في الخرافات	77

3- ميدان السباق	79
4- جانب من الحياة اليومية بالقصر الإمبراطوري	80
رابعا: العمارة والفنون	92-82
1- أهم المعالم العمرانية بالمدينة	82
أ/ كنيسة آيا صوفيا	82
ب/ القصر الإمبراطوري	84
ج/ الهبدروم	85
2- أسوار المدينة وأبوابها	86
3- منائر القسطنطينية	89
4- قبر قسطنطين	90
5- براعة أهل المدينة في فن التصوير	90
6- آثار الدمار والتخريب بالمدينة	91
خاتمة	95-93
الملاحق	99-96
المصادر والمراجع	112-100
فهارس البحث	123-114
فهرس الأعلام والأماكن	119-114
فهرس المحتويات	124-120